



جمهورية العراق  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
جامعة الموصل / كلية الآداب  
مجلة آداب الرافدين

# مَجَلَّةُ

# آدَابِ الرَّافِدِيْنَ

مجلة فصلية علمية محكمة

تصدر عن كلية الآداب - جامعة الموصل

العدد السابع والثمانون / السنة الواحدة والخمسون

جمادى الأول - ١٤٤٣ هـ / كانون الأول ٢٠٢٠ / ١٢ / ٢٠٢١ م

رقم إيداع المجلة في المكتبة الوطنية ببغداد : ١٤ لسنة ١٩٩٢

ISSN 0378- 2867

E ISSN 2664-2506

للتواصل: [radab.mosuljournals@gmail.com](mailto:radab.mosuljournals@gmail.com)

URL: <https://radab.mosuljournals.com>

# المجلة العراقية للدراسات والبحوث

مجلة محكمة تعنى بنشر البحوث العلمية الموثقة في الآداب والعلوم الإنسانية  
باللغة العربية واللغات الأجنبية

العدد: السابع والثمانون السنة: الواحدة والخمسون جمادى الأولى - ١٤٤٣هـ / كانون الأول ٢٠٢١م

رئيس التحرير: الأستاذ الدكتور عمار عبداللطيف زين العابدين (المعلومات والمكتبات) كلية الآداب/ جامعة الموصل/ العراق

مدير التحرير: الأستاذ المساعد الدكتور شيبان أديب رمضان الشيباني (اللغة العربية) كلية الآداب/ جامعة الموصل/ العراق

أعضاء هيئة التحرير :

الأستاذ الدكتور حارث حازم أيوب	(علم الاجتماع) كلية الآداب/ جامعة الموصل/ العراق
الأستاذ الدكتور حميد كردي الفلاحي	(علم الاجتماع) كلية الآداب/ جامعة الأنبار/ العراق
الأستاذ الدكتور عبد الرحمن أحمد عبدالرحمن	(الترجمة) كلية الآداب/ جامعة الموصل/ العراق
الأستاذ الدكتور علاء الدين أحمد الغرابية	(اللغة العربية) كلية الآداب/ جامعة الزيتونة/الأردن
الأستاذ الدكتور قيس حاتم هاني	(التاريخ) كلية التربية/ جامعة بابل/ العراق
الأستاذ الدكتور كلود فينثز	(اللغة الفرنسية وآدابها) جامعة كرنوبل آلب/فرنسا
الأستاذ الدكتور مصطفى علي الدويدار	(التاريخ) كلية العلوم والآداب/ جامعة طيبة/ السعودية
الأستاذ الدكتور نايف محمد شبيب	(التاريخ) كلية الآداب/ جامعة الموصل/ العراق
الأستاذ الدكتورة سوزان يوسف أحمد	(الإعلام) كلية الآداب/ جامعة عين شمس/ مصر
الأستاذ الدكتورة عائشة كول جلب أوغلو	(اللغة التركية وآدابها) كلية التربية/ جامعة حاجت تبه/ تركيا
الأستاذ الدكتورة غادة عبدالمنعم محمد موسى	(المعلومات والمكتبات) كلية الآداب/ جامعة الإسكندرية
الأستاذ الدكتور وفاء عبداللطيف عبد العالي	(اللغة الإنكليزية) كلية الآداب/ جامعة الموصل/ العراق
الأستاذ المساعد الدكتور أرثر جيمز روز	(الأدب الإنكليزي) جامعة درهام/ المملكة المتحدة
الأستاذ المساعد الدكتورة أسماء سعود إدهام	(اللغة العربية) كلية الآداب/ جامعة الموصل/ العراق
المدرس الدكتور هجران عبدالإله أحمد	(الفلسفة) كلية الآداب/ جامعة الموصل/ العراق

سكرتارية التحرير :

التقويم اللغوي: م.د. خالد حازم عيدان	— مقوم لغوي/ اللغة العربية
م.م. عمار أحمد محمود	— مقوم لغوي/ اللغة الإنكليزية

المتابعة:

مترجم. إيمان جرجيس أمين	— إدارة المتابعة
مترجم. نجلاء أحمد حسين	— إدارة المتابعة

## قواعد تعليمات النشر

١- على الباحث الراغب بالنشر التسجيل في منصة المجلة على الرابط الآتي:

[https://radab.mosuljournals.com/contacts?\\_action=signup](https://radab.mosuljournals.com/contacts?_action=signup)

٢- بعد التسجيل سترسل المنصة إلى بريد الباحث الذي سجل فيه رسالة مفادها أنه سَجَّل فيها، وسيجد كلمة المرور الخاصة به ليستعملها في الدخول إلى المجلة بكتابة البريد الإلكتروني الذي استعمله مع كلمة المرور التي وصلت إليه على الرابط الآتي:

[https://radab.mosuljournals.com/contacts?\\_action=login](https://radab.mosuljournals.com/contacts?_action=login)

٣- ستمنح المنصة (الموقع) صفة الباحث لمن قام بالتسجيل؛ ليستطيع بهذه الصفة إدخال بحثه بمجموعة من الخطوات تبدأ بملء بيانات تتعلق به وبحثه ويمكنه الاطلاع عليها عند تحميل بحثه .

٤- يجب صياغة البحث على وفق تعليمات الطباعة للنشر في المجلة، وعلى النحو الآتي :

• تكون الطباعة القياسية على وفق المنظومة الآتية: (العنوان: بحرف ١٦ / المتن: بحرف ١٤ / الهوامش: بحرف ١١)، ويكون عدد السطور في الصفحة الواحدة: (٢٧) سطرًا، وحين تزيد عدد الصفحات في الطبعة الأخيرة عند النشر داخل المجلة على (٢٥) صفحة للبحوث الخالية من المصورات والخرائط والجداول وأعمال الترجمة، وتحقيق النصوص، و (٣٠) صفحة للبحوث المتضمنة للأشياء المشار إليها يدفع الباحث أجور الصفحات الزائدة فوق حد ما ذكر آنفًا .

• تُرتَّب الهوامش أرقامًا لكل صفحة، ويُعرَّف بالمصدر والمرجع في مسرد الهوامش لدى وورد ذكره أول مرة، ويلغى ثبت (المصادر والمراجع) اكتفاءً بالتعريف في موضع الذكر الأول ، في حالة تكرار اقتباس المصدر يذكر (مصدر سابق).

• يُحال البحث إلى خبيرين يرشَّحانه للنشر بعد تدقيق رصانته العلمية، وتأكيد سلامته من النقل غير المشروع، ويُحال - إن اختلف الخبيران - إلى (مُحكِّم) للفحص الأخير، وترجيح جهة القبول أو الرفض، فضلًا عن إحالة البحث إلى خبير الاستلال العلمي ليحدد نسبة الاستلال من المصادر الإلكترونية ويُقبل البحث إذا لم تتجاوز نسبة استلاله ٢٠% .

٥- يجب أن يلتزم الباحث (المؤلف) بتوفير المعلومات الآتية عن البحث، وهي :

• يجب أن لا يضمَّ البحث المرسل للتقييم إلى المجلة اسم الباحث، أي: يرسل بدون اسم .  
• يجب تثبيت عنوان واضح وكامل للباحث (القسم/ الكلية او المعهد/ الجامعة) والبحث باللغتين: العربية والإنكليزية على متن البحث مهما كانت لغة البحث المكتوب بها مع إعطاء عنوان مختصر للبحث باللغتين أيضًا: العربية والإنكليزية يضمُّ أبرز ما في العنوان من مرتكزات علمية .

• يجب على الباحث صياغة مستخلصين علميين للبحث باللغتين: العربية والإنكليزية، لا يقلَّان عن (١٥٠) كلمة ولا يزيدان عن (350)، وتثبيت كلمات مفتاحية باللغتين: العربية والإنكليزية لاتقل عن (٣) كلمات، ولا تزيد عن (٥) يغلب عليهنَّ التمايز في البحث.

٦- يجب على الباحث أن يراعي الشروط العلمية الآتية في كتابة بحثه، فهي الأساس في التقييم، وبخلاف ذلك سيُردّ بحثه ؛ لإكمال الفوات، أمّا الشروط العلميّة فكما هو مبين على النحو الآتي :

• يجب أن يكون هناك تحديد واضح لمشكلة البحث في فقرة خاصة عنونها: (مشكلة البحث) أو (إشكاليّة البحث) .

• يجب أن يراعي الباحث صياغة أسئلة بحثية أو فرضيات تعبر عن مشكلة البحث ويعمل على تحقيقها وحلّها أو دحضها علمياً في متن البحث .

• يعمل الباحث على تحديد أهمية بحثه وأهدافه التي يسعى إلى تحقيقها، وأنّ يحدّد الغرض من تطبيقها.

• يجب أن يكون هناك تحديد واضح لحدود البحث ومجتمعه الذي يعمل على دراسته الباحث في بحثه .

• يجب أن يراعي الباحث اختيار المنهج الصحيح الذي يتناسب مع موضوع بحثه، كما يجب أن يراعي أدوات جمع البيانات التي تتناسب مع بحثه ومع المنهج المتبع فيه .

• يجب مراعاة تصميم البحث وأسلوب إخراجه النهائي والتسلسل المنطقي لأفكاره و فقراته.

• يجب على الباحث أن يراعي اختيار مصادر المعلومات التي يعتمد عليها البحث، واختيار ما يتناسب مع بحثه مراعيًا الحدّات فيها، والدقة في تسجيل الاقتباسات والبيانات الببليوغرافية الخاصة بهذه المصادر.

• يجب على الباحث أن يراعي تدوين النتائج التي توصل إليها ، والتأكّد من موضوعاتها ونسبة ترابطها مع الأسئلة البحثية أو الفرضيات التي وضعها الباحث له في متن بحثه .

٧- يجب على الباحث أن يدرك أنّ الحُكْمَ على البحث سيكون على وفق استمارة تحكيم تضمّ التفاصيل الواردة آنفًا، ثم تُرسل إلى المُحكِّم وعلى أساسها يُحكّم البحث ويُعطى أوزانًا لفقراته وعلى وفق ما تقرره تلك الأوزان يُقبل البحث أو يرفض، فيجب على الباحث مراعاة ذلك في إعداد بحثه والعناية به .

تنويه:

تعبّر جميع الأفكار والآراء الواردة في متون البحوث المنشورة في مجلّتنا عن آراء أصحابها بشكل مباشر وتوجهاتهم الفكرية ولا تعبّر بالضرورة عن آراء هيئة التحرير فافتضى التنويه

رئيس هيئة التحرير



## المكتبيات

الصفحة	العنوان
<b>بحوث اللغة العربية</b>	
44-1	النهضة والقراءات القرآنية مواقف وحقائق محمد ذنون يونس فتحي
73 -45	المحاكاة الصوتية في قراءة عاصم برواية حفص هاء الكناية أنموذجاً محمد إسماعيل المشهداني
100-74	التعليل الصوتي لأحكام النون الساكنة والتنوين عند القراء العشرة فتحي طه أحمد وفيصل مرعي الطائي
134-101	الأخر/الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي أسماء طاهر ذنون العبادي ومنتصر عبد القادر الغضنفر
163 -135	أسلوبية التضاد الدلالي في أحاديث رياض الصالحين للنووي (ت 676هـ) هدى محمد محمود محمد ومازن موفق صديق الخيرو
209 -164	الأحاديث النبوية الشريفة المبدوءة بـ ( ليس منّا ... ) . دراسة دلالية . فخري أحمد سليمان
241-210	رمز المرأة "ليلي" في الشعر الصوفي عصمت حسين ميرزا
<b>بحوث التاريخ والحضارة الإسلامية</b>	
269 -242	تطور العلوم الدينية وعلوم اللغة والنحو والأدب في المدن الأندلسية التي أسسها المسلمون في عصري الإمارة والخلافة (138-422هـ/755-1031م) أسامة سالم شيت حامد الزيبي وفائزة حمزة عباس
314 -270	تطور صورة الآخر العثماني في كتابات المستشرقين والمؤرخين الأوروبيين محمد علي محمد عفين
332 -315	نبذة عن حياة الملك المنصور الاجتماعية محمد عادل شيت وسلطان جبر سلطان
367 -333	مجد الدين ابن الأثير وعلاقته بالسلطة الزنكية ما بين (565-589هـ/1169-1193م) مناهل أسامة الخيرو وشكيب راشد بشير
392 -368	الصلات التجارية بين الموانئ الهندية والصينية (132_656هـ/749_1258م) قاسم عمر علاوي اللهيبي وسفيان ياسين إبراهيم
412 -395	النشأة الاجتماعية للدكتور محمد علي داهش محمود جاسم محمد وهشام سوادى هاشم
434 -413	إسهام المرأة الاقتصادي في العصر العباسي (132-656هـ/749-1258م) من خلال كتب البلدانيات أحمد ميسر محمود
455 -435	السفارة في الإسلام العصر العباسي بتول عباس فاضل
<b>بحوث علم الاجتماع</b>	
488 -456	النظرية والمنهج في علم اجتماع المعرفة واجتماعية المعرفة العلمية شفيق إبراهيم صالح الجبوري
513 -489	الكلفة الاقتصادية والاجتماعية للمواد الغذائية المستوردة في العراق دراسة ميدانية على أطفال مدينة الموصل فائز محمد داؤد وفراس عباس فاضل البياتي
552 -514	الإدمان على المخدرات دراسة تحليلية في أسباب وأنواع المخدرات والنتائج وسبل المعالجة محمد عبد المنعم الزيبي
<b>بحوث المعلومات والمكتبات</b>	

594 -553	تكنولوجيا المعلومات واستخدامها من العاملين في المكتبات : مكتبات جامعة الموصل أنموذجًا مهدي صالح أحمد وعمار عبد اللطيف زين العابدين
بحوث علم النفس وطرائق التدريس	
661 -595	بناء اختبار لقياس القدرات التقويمية لدى طلبة المرحلة الثانوية ميساء محمد قاسم وندى فتاح زيدان

## تطوّر صورة الآخر العثماني

### في كتابات المستشرقين والمؤرخين الأوربيين

محمد علي محمد عفين \*

تأريخ القبول: 2021/6/5

تأريخ التقديم: 2021/5/9

المستخلص:

يتناول البحث قضية ذات أهمية كبيرة. خاصة في سياق التغيرات السياسية والاجتماعية التي يمر بها العالم. وهذه الفكرة هي فكرة الآخر التي جذبت انتباه المفكرين والفلاسفة والمؤرخين.

في هذه الدراسة نتناول موضوع الآخر العثماني في أدب الفكر الأوروبي. برزت قضية الآخر العثماني على أساسها العديد من المواقف السياسية والثقافية تجاه الشرق بشكل عام.

يتناول البحث تطوّر فكرة الآخر العثماني في الثقافة الأوروبية؛ أولاً بطريقة كرونولوجية، والمقصود هنا تاريخ الحوادث؛ وفقاً لتسلسلها الزمني ثم بالمنهج التحليلي. من خلال مجموعة مختارة من العينات المختلفة التي تضم كتابات تاريخية وشرقية، حيث جرى انتخاب أفكار تاريخية معينة تصدر عن الشريحة الأكثر شهرة في مجال الكتابات التاريخية أو التأثير في مجرى الحوادث، علماً أنّ كلمة تطوّر لم ترد في المعاجم العربية، وهي من الألفاظ المستحدثة وتختلف عن التطور وان التطوير يقتضي وجود ارادة تهدف الى التغيير والتطوير .

يهدف البحث من خلال هذا الطرح أولاً إلى الكشف عن حمولات فكرة الآخر؛ والمقصود بها الحمولات النفسية والاجتماعية، أي بمعنى آخر: روايب وتراكمات دينية وعقائدية وحوادث تاريخية تعترى ثقافات معينة وتؤثر فيها ويمكن استحضارها حين يرى صاحبها نماذج حوادث مشابهة لها؛ وهو ما يطلق عليه ثنائية الغرب /

\* أستاذ مساعد/ قسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

الشرق. ثانياً: تبيان انعكاس حمولات هذه الثنائية على العلاقة بين الشرق والغرب بشكل عام، وأخيراً: يهدف البحث إلى الإسهام في تصحيح التصورات عن الآخر الشرقي والغربي كليهما؛ من أجل الوصول إلى حالة الاستقرار والقبول والتعايش الإنساني بين الشعوب.

الكلمات المفتاحية: صورة الآخر، العثماني، المستشرقين الأوربيين.

المقدمة:

تشكل ثنائية الأنا والآخر إحدى المعضلات الفكرية والنفسية التي رافقت التطور الثقافي والحضاري في العالم، وهي قيمة تصويرية لها ثقل في مواقف الشعوب والأعراق من بعضها البعض. وهي من أخطر المفاهيم التي حددت علاقات أوربا بالشرق.

ومنذ وقت مبكر كان لحضارة اليونان ثقل في تأصيل هذا المعنى الذي غالباً ما كان يتجاوز البعد الجغرافي ليدخل في حيز آخر ذي بعد حضاري. وتشكل لدى اليونان مفهوم لآخر غالباً ما شابه في العصر الحديث الكثير من سوء الفهم، لأن نظرة اليونان للشرق آنذاك كانت تختلف جذرياً عن نظرة أوربا في العصور الحديثة؛ بل أن نظرة اليونان لأوربا نفسها غير ما يدعيه الغربيون في العصور اللاحقة.

ثم تطوّر الحال إلى الإمبراطورية الرومانية التي بدت فيها مفاهيم الآخرة أكثر بروزاً وتحديداً، بل أكثر حدةً وتعسفاً؛ حتى مع المكونات الأوربية الأخرى بما في ذلك الإرث اليوناني ذاته.

ومن الجدير بالذكر أن مصطلح الآخر (Othering) أطلق من قبل الباحثين على الجهات المغايرة لهم عقائدياً، وأن الدراسة لم تُحدد بفترة زمنية وذلك للإشارة إلى تطور المصطلح.

ثم تنامي هذا الأمر في العصور المتأخرة ويقصد بها الحديثة والمعاصرة بفعل التطورات العقائدية والسياسية والثقافية ونشوء الدول القومية، لكن الدافع السياسي ثم الاقتصادي غالباً ما كان المؤثر الأبرز في تشكيل التصور عن الآخر الشرقي للعثمانيين وغيرهم؛ حتى وإن تلبّس بشعارات وأهداف دينية لا يُنكر أثرها أيضاً في تشكيل المفهوم. ومنذ اتصال الغرب بالشرق كانت هناك موجّهات سياسية وعسكرية

ترسّخت بفعل الفتوحات الإسلامية؛ ثم الاجتياح الصليبي لمنطقة الشرق لاحقاً، ثم كان للحضور العثماني ثقله الكبير في إعادة زخم العلاقة بين الشرق والغرب؛ لكنه أخذ ما يشبه إلى حد كبير الفصام الذي واكب الحروب الصليبية، لكن هذه المرة مع حضور القوة العثمانية وسطوتها على الأحداث.

ومن كل تلك الأحداث برزت وترسّخت مفاهيم مختلفة عن الآخريّة سواء في الشرق أم في الغرب. وهذه الآخريّة غالباً ما تكون ذات حمولات نفسية ترسخ الشُّقة بين الشرق والغرب ثم تؤدي إلى حالات سلبية تنعكس على ثقافات الشعوب وعلاقتها ببعضها البعض.

يتتبع البحث من خلال أخذ العينات قيد الدرس قد لا تمثل مطلق الأحوال نظراً لسعة القضية وتشعباتها؛ لكن هذه النماذج التي توزعت بين الفلسفة وفلسفة التاريخ والدراسات الاستشراقية تعطي انطباعات مناسبة عن المسألة وتطوراتها؛ لأنها مشتقة من أكثر الأصوات حضوراً في الساحة السياسية والفكرية. ولها أصداء أثّرت على الكثير من الباحثين والمؤرخين بما يمثل امتداداً لرؤاهم وتصوراتهم عن الآخر العثماني، ومن هنا توزع البحث إلى منعطفات توصف بمجملها تطور التصور الأوربي من الآخر العثماني عبر الأدبيات المكتوبة.

#### توطئة

بداية من المفيد إبداء ملاحظة بخصوص منهج البحث في قضية الكشف عن صورة الآخر العثماني في الذهن الغربي، وهذه الملاحظة مفادها: أننا وفي معرض توضيح صورة الآخر العثماني في التصور الغربي ربما أمكن لنا إعطاء نماذج تشمل عصوراً مختلفة وتوجهات متباينة زمنياً واتجاهاً عن كيفية نظرهم إلى الآخر العثماني، لكن يلزمنا الإقرار بأننا مهما اخترنا من عينات تاريخية أو فلسفية أو إستشراقية فهذه العينات لا تمثل وحدها تصور الغرب عن الشرق عموماً، وعن الآخر العثماني على الخصوص، إلا أنّ تراكم النماذج واختلاف مشاربها وتوجهاتها تعطي انطباعاتاً مقارباً عن الحالة؛ لتصبح ظاهرة عامة.

وسنرى أنّ تصورات الغرب عن الآخر الشرقي ذات منحى سلبيّ بالعموم؛ لكن الموضوعية تقتضي الإقرار بوجود آراء وتصورات أخرى إيجابية؛ أو على الأقل مخالفة للتصورات السلبية.

فمثلاً وفي قلب الحاضنة الأوربية آراء متناقضة حول الموقف من الإسلام منذ بداية القرن التاسع عشر، فبجانب آراء موير -Moyer- - مثلاً - والذي أمعن في تفسيراته السلبية للإسلام؛ معتمداً البعد التبشيري؛ ووفقاً لرأي كلينتون بينيت Clinton Bennett نجد تشارلز فوستر (1787-1871) الكاتب الذي شكك في المواقف التقليدية تجاه الإسلام؛ لاسيما في كتابه كشف النقاب عن المحمدية في عام 1829، الأمر الذي حمل موير نفسه على الاعتراف بما حمله كتاب فوستر من "رصيد ضخم من المعلومات المفيدة التي ستؤتي ثمارها جيداً، لكن الكتاب أتى بحجج إذا قُبلت فستثبت "الأصل الإلهي للإسلام؛ وتعرض الرسالة المسيحية للخطر. مما حدا بـ موير على التساؤل: كيف سيرحب العلماء بمثل هذا الكتاب الذي كتبه رجل دين مسيحي"<sup>(1)</sup>.

1 تشارلز فوستر "وزير أنجليكاني بريطاني مشهور (1787-1871) يمثل الموقف الأكثر تفضيلاً للإسلام. ويعدّ كتاب فوستر (كشف النقاب عن المحمدية Mahometanism Unveiled) من لادن الكثيرين مرجعاً في موضوعه، على الرغم من أن هناك من شكك بشدة في أسسه اللاهوتية. لاسيما في قضية تأصل قصة عهد إبراهيم وابنيه إسماعيل وإسحاق؛ التي أكد فيها فوستر أن العهد كان لإسماعيل وليس لإسحاق. وبالتالي يجب أن يُنظر إلى الإسلام على أنه يفتح الطريق للإنجيل. وانتقد المسيحيين الذين جعلوا محمد على مستوى المسيح وأصر على أنه يجب أن يُنظر إليه بمستوى موسى، وأنه شخص سعى إلى أن يكون له تأثير إيجابي على الأخلاق. تعرضت نظرية لفوستر لانتقادات شديدة من الإرساليات المسيحية. لأنه أعطى للمسلمين نسباً وثناءً =إبراهيمياً، ورفضوا هذه المدرسة التصالحية بين المسيحية والإسلام. ومن هؤلاء معارضين السير ويليام موير (1819-1905)، مدير مدرسة إدنبرة ومؤلف كتاب (Life of Mahomet) 1861. وموير لم يرفض وجهة النظر القائلة بأن الإسلام يحتوي قيمة روحية فحسب، بل رفض فكرة أنه مهد الطريق لقبول الإيمان المسيحي، وإن كلام فوستر ليس ضد المسيح بل ضد موسى أيضاً. أنظر:

وإذ البحث بصدد الكشف عن عينات عامة فسينحى منحىً تطورياً يأخذ بالاعتبار العامل الزمني ثم حيز التوجه؛ فصورة الآخر نجدها متغلغلة في الكتابات التاريخية البحتة، والكتابات الأدبية والخطب الدينية وفي المراسلات السياسية، وحتى في لوحات الفنانين، فضلاً عن فلسفة التاريخ التي تُعد الأكثر جذرية في تكوين فكرة الآخر بعد التوجه الديني.

لذلك كان على البحث توزيع الأفق في عدة اتجاهات. الأول التحري عن الجذور التاريخية لفكرة الآخر في الذهن الغربي؛ ثم يعرج على اختيار عينات أسهمت في تكوين تلك الصورة؛ وعندها سيسهل تناول فكرة الآخر العثماني في ما كتبه المؤرخون والأدباء والرحالة والمستشرقون في هذا المضمار. لأن معرفة الآخر بقدر ما هي قوة معرفية ومادية؛ بقدر ما هي قوة أخلاقية تضي طابع التسامح والإنصاف والتعايش مع الآخر الذي هو المحيط بعمومه. ومن هنا تسهم مثل هكذا دراسات في الكشف عن مخاطر ومساوئ الشطط في معرفة الآخر أو تنصيف الآخر تنصيفنا إقصائياً يتعارض مع المثل الأخلاقية التي من شأنها أن تفضي إلى السلم والتلاحق البناء بين الأمم بمعزل عن آخريتهم السياسية أو العرقية أو الدينية. " وهذه قضية يتوجب أن ينشغل بها الباحثون والأكاديميون والمفكرون إلى جانب نخبة من السياسيين والإعلاميين، ... ناهيك عن المنظمات الدولية، كما يتوجب الارتقاء بالحوار مع جميع الثقافات والحضارات والأديان إلى مستوى ما يفرضه التاريخ المعاصر من تحديات، وما توجبه أوضاع العالم المتقلبة ومساهمة أمنية في الدفاع عن السلم والحرية وحقوق الإنسان في العالم بأسره (1).

الجذور التاريخية لثنائية الشرق والغرب:

Ruth A. Tucker. From Jerusalem to Irian Jaya. P. 235. Copyright © 1983, Zondervan, Grand Rapids, Michigan 2004

(1) حسن شحاته، الذات والآخر في الشرق والغرب، صور وإشكالات، دار العالم العربي، ط1، (القاهرة ، 2008)، ص102.

تعدُّ ثنائية الأنا والآخر من أهم الموضوعات التي تناولتها الدراسات الحديثة أيضاً ، وعُنت بها الدراسات التاريخية التي تطمح إلى تفسير النصوص والخطاب؛ عبر مناهج تساعد على فهم الحادثة التاريخية. فالمنهج التحليلي في التاريخ أصبح من أهم المناهج؛ لكنه يحتاج إلى معرفة فائقة بدراسات الخطاب والفلسفة التأويلية؛ فضلا عن ثقافة في مجالات أخرى بخلاف التاريخ السردي والوصفي.

وينبغي التنويه هنا إلى أن الدراسات التاريخية الحديثة خاصة انصبت على نقد خطاب فلسفة التاريخ؛ إذ تعرض إلى نقود وتفكيك بسبب حملاته الخطيرة. وبالمقابل انصبت دراسات نقد الاستشراق على هذا المنحى بهدف تحليل دوافع الاستشراق وتبيان مراميها الإيجابية والسلبية بوصف القسم الأوسع من الاستشراق كتابةً تاريخية ذات خطورة وأهمية.

أما الدراسات الحضارية فحاولت الجمع بين تلك الدراسات معاً؛ وأصبحت الهاجس الذي يهم الباحثين؛ فكتبَ في هذا المجال الكثير من الكتب والبحوث؛ وكل ذلك بسبب ما باتت تشكله ثنائية (الأنا/ الآخر) من خطورة على السلم الاجتماعي؛ في ظل الانفتاح الثقافي والعولمي ومؤثرات الاستقطاب الإعلامي؛ فضلا عن التدخلات السياسية ذات السمة التي ترى في احتواء هوية الآخر أحد مدارج القوة والتمكّن.

وتظل قضية الأنا والآخر- في الكتابات التاريخية تعمل عمل سلطة لا تعبّر بالضرورة عن مصلحة صاحبها؛ بقدر ما تعبّر عن مصلحة النظام الساري؛ سواءً أكان نظاماً سياسياً أم عقدياً أم عرقياً. والأنا لا تتحول إلى أنا سلبية من دون محرّضات، وهي إن اشتغلت اشتغالاً سلبياً فاشتغالها محصورٌ في مصلحة الفرد ضد مصلحة الآخرين.

وفي علاقة الشرق بالغرب تاريخياً نجد السياسة قد عملت على تعميق الطابع التحريضي، وطمس حقيقة الشرق؛ بفعل الأطماع التي كان الغرب يبديها إبّان الحروب الصليبية الأولى؛ وما انتهت إليه من إخفاقات، ثم " كثيرٌ من الصور المشوّهة للشرق ترسّبت في الذاكرة التاريخية الأوربية على شكل عقدةٍ ظهرت بفعل صدمة الفتوحات الإسلامية، وتجددت وقويت بظهور العثمانيين الذين حقّقوا في عام 1453م السيطرة



على القسطنطينية<sup>(1)</sup>، وأغلب ثقل الاصطلاحات التي تعبر عن فكرة الأنا والأخر تمثلت بفكرة الشرق والغرب التي تعود جذورها إلى الحضارات القديمة؛ لاسيما اليونانية والرومانية قبالة عالم الشرق.

قسّم الإغريقُ العالمَ القابلَ للسكنى إلى جزأين: "أوربا الواقعة إلى غرب بحر إيجّه والبحر الأسود، وآسيا؛ التي تقع إلى الشرق من هذه المياه. وبعد زمنٍ استقر الأمرُ على تقسيم ثلاثيٍّ للأرض؛ والتي كانت تشكل ما اعتقدوا أنه الجزء اليابس منها، فالبحرُ المتوسط - كان في ظنهم - يقع في مركز الأرض (ومن هنا أتى اسمه الذي يعنى وسط الأرض). وتقع أوربا إلى الشمال منه، وآسيا إلى الشرق. وقد قرّان أرسطو بين سكان الأراضي الباردة في أوربا - المتفجرين حيوية، والمفتقرين إلى الذكاء والمهارة، وليسوا بقادرين على حكم الآخرين - بسكان الأراضي الأكثر دفئاً في آسيا، الذين كانوا "أذكاء ولطيفي المعشر، إلا أنهم يفتقرون إلى الحيوية"<sup>(2)</sup>. والأرجح أن مفهوم الحيوية لدى أرسطو Arsto يعني القدرة الجسدية. والملاحظ أنه لم يصنّف الإغريق على أنهم أوروبيون، بل شعبٌ متميز؛ حظي - بفضل موضعه الوسط بين القارتين - بأفضل الصفات.

إن نزعة الإغريق القومية ذات البعد الثنائي (شرق/ غرب) كانت وليدة ظروفٍ حدثت بفعل الحروب مع الفرس والفينيقيين؛ ومع ذلك "كانوا يكتون احتراماً نسبياً للثقافات التي قامت في مصر وفينيقية وبلاد الرافدين. وكان الغلو في الشعور القومي لديهم ضئيلاً؛ مقارنةً بالعنصرية التي اقترنت بعقيدة أوربا لاحقاً؛ وهو اتجاه اجتاح أوربا مع ظهور الحركات القومية والحركة الرومانسية في أواخر القرن الثامن عشر"<sup>(3)</sup>.

واليونانيون إن كانوا عرقيين نسبياً فعرقيتهم لا تخص الشرقيين وحدهم، بل كل من ليسوا يونانيين. وأخطر ما ورد عن اليونان في مجال ثنائية الشرق والغرب التصنيف

1 Western Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe David R. Blanks and Michael Frassetto. p.210.

2 ماترن برنال، اثنا السوداء، ترجمه: احمد عثمان، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي

للترجمة، ج1، (د.م. 2001)، ص102.

(3)برنال، المصدر السابق، ص102.

الانثروبولوجي الذي وضعه أرسطو؛ إذ قسّم العالم القديم إلى إغريق وبرابرة<sup>(1)</sup>؛ أي إلى شعوب حرّة بطبيعتها وآخرين عبيد.

لكن الغرب الحديث حاول تصنيف نفسه ضمن الإغريق؛ بينما أرسطو لم يستثن أوروبا الغربية من البربرية. ومن رؤية اليونان انتقل مصطلح شرقي Oriental إلى اللاتينية؛ فأصبح يُشير إلى الأراضي الآسيوية الواقعة إلى الجنوب الشرقي من أوروبا، والممتدة حتى الصين، وهذا ما ترتّب عليه، ومنذ وقت مبكر التثبّت بالعنصر اليوناني بوصفه مرجعاً لعموم أوروبا؛ فأوروبا أصبحت وريث اليونان؛ بينما الحقيقة غير ذلك على وفق النظرة التي ذكرناها لأرسطو نفسه.

ولما كانت اليونان ذات حضارة شامخة فقد اتخذت مرجعاً قبالة الشرق، وجرى سحب نظرة اليونان للشرق إلى الثقافة الأوربية، وازداد ذلك بالاستناد أيضاً إلى الثقافة الرومانية التي ظهر فيها التمايز عن الشرق بصورة واضحة، وهذه إحدى الرواسب التاريخية في العالم القديم

تبني الكتاب الرومان مفهوم ثنائية الشرق والغرب الذي طوّره الإغريق، ومعه تقسيم العالم إلى ثلاثة أجزاء، لكن لا يبدو أنّ هذا الاستقطاب كانت له عند الرومان الأهمية الشعورية مثل الإغريق، فالرومان استعملوا مصطلحي أوروبا وآسيا؛ للإشارة إلى القسمين الشرقي والغربي من إمبراطوريتهم، وخاضوا سلسلة حروب مع الفرس في الهضبة الإيرانية، لكنهم لم يميلوا إلى استعمال مصطلح "آسيوي" على نحو ازدرائي<sup>(2)</sup> تماماً.

ولقد انتقد بعض الكتاب الرومان بقوة ما عدّوه تأثيراً أخلاقياً مُفسداً آتياً من الشرق، وكانوا يعنون بـ الشرق في معظم الأحيان بلاد اليونان، التي كانت ثقافتها بالنسبة لهم ناعمة وتفتقر إلى الفضائل الحربية التي مكّنت الرومان من إنشاء إمبراطورية بذلك الاتساع.

(1) أرسطوطاليس، السياسة، ترجمه: لطفى السيد، الهيئة المصرية للكتاب، (القاهرة، د.ت)، ص

95 - 101.

(2) برنال، المصدر السابق، ص104.

وعبر الزمن " انتقل مركز جاذبية الإمبراطورية الثقافية والسياسي نحو ولاياتها الأكثر ثراء وتمدناً في الطرف الشرقي من المتوسط، وانعكس هذا بأكثر الأشكال درامية في قرار الإمبراطور قسطنطين بنقل عاصمة إمبراطوريته من روما إلى مدينة تقع في الشرق؛ سُميت القسطنطينية، وهي اسطنبول الحالية، كذلك جعل المسيحية الديانة الرسمية للرومان. وخلال القرن الخامس سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية، وتغلّبت عليها شعوباً أخرى أقامت ممالك أصغر في إيطاليا وأسبانيا وبريطانيا، وعزا بعض مؤرخي روما سقوطها إلى "العدوى" التي أصابتها برذائل الشرق!، إذ زعموا أنها قوّضت الفضائل التي جعلت روما عظيمة يوماً ما، تماماً كما انتقدوا التلبس بالثقافة اليونانية؛ وعدوها أحد عناصر الركاسة والضعف<sup>(1)</sup>.

ونستطيع أن نرى ذلك في كتاب إدوارد جيبون Edward Gibbon: تاريخ انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية History of the Decline and Fall of the Roman Empire وقد صدر بين عامي 1776 و 1788. أكد جيبون أن "الزهو الرجولي للرومان المشبع بالقوة أخلّى السبيل للغرور التافه للشرق ومراسم العظمة المتباهية؛ فتسلّل إليهم التصنّع الفخم لبلاطات آسيا". واعتمد جيبون الذي أسهم في تشكيل الفكر الأوربي على الانقسام القديم الذي كان يحمل شحنةً نفسيةً بين أوروبا وآسيا، ومدعماً بتأطير التاريخ بالاختيار الانتقائي لعناصر من ثقافة روما؛ وجعلها العناصر المتفردة وقطب الثقافة والحضارة<sup>(2)</sup>.

ويرى كثيرون " أن حضارة الرومان نسخةً ماديةً من حضارة اليونان، لكنّ روما مارست الكثير من ألوان التعسف ومصادرة الحقوق والتمايز العرقي والاضطهاد والطبقي منذ نشوئها، وما يسمى بالديمقراطية الرومانية كان امتيازاً للنخب على حساب الأكثرية خارج الإمبراطورية وداخلها؛ فتاريخ الإمبراطورية سيناريو لتمجيد

(1) لوكمان، تاريخ الاستشراق وسياساته، ترجمه: شريف يونس، دار الشروق، ط1، (د.م.

(2007)، ص 50 - 56.

(2) جون غريبين، تاريخ العلم، ترجمه: شوقي جلال، عالم المعرفة، ط1. (الكويت 2012)،

ص24.

البطولة على أساس التملك؛ وهذه البطولة قامت على تحقيق أعلى قدرٍ ممكن من البطش بالآخر والاستحواذ على السلطة<sup>(1)</sup>.

ومع ذلك فالحروب المستمرة بين آسيا والرومان لم ترسخ تماماً الثنائية السلبية بين الشرق والغرب، وبدأ التفعيل السلبي الأكثر خطورة منذ توسع المسلمين في الأندلس، ثم منذ نشوء الحروب الصليبية التي هدفت إلى اجتياح الشرق العربي، وهذا ما لازمه دعائيةً حربيةً غالباً ما لجأت إلى مسوغات عقيدية لتحقيق مآربها، " وكانت الدوافع الاقتصادية عاملاً محرّكاً للحملات الصليبية؛ ولم يكن اشتراك الطبقات الشعبية فيها من أجل التحرر من الفقر الذي عانوا منه تحت ضغط الكنيسة والإقطاع فحسب؛ بل رغبة المدن التجارية مثل جنوا وبيزا والبندقية في السيطرة على موانئ شرق البحر المتوسط<sup>(2)</sup>، وكما يشير المستشرق كلود كاهين؛ " فهناك أهدافٌ تمثّلت بارتباط مصالِح بيزنطة بمصالح البابا إربان الثاني آنذاك عبر: " إنشاء قاعدة نفوذ في الشرق؛ لحساب كنيسة روما"<sup>(3)</sup>.

ومن هنا تعمّقت الشقة بين الشرق والغرب ولازم ذلك خطاب الكراهية والمُمايزة، وهو امتدادٌ لما ظهر في أدبيات الحروب الصليبية، واستمرّ طيلة العلو البيزنطي في الشرق.

إن الصورة الساخرة من المسلمين كانت ملازمةً لحقيقة مفادها " أن البيزنطيين لم يعيشوا المسلمين إلا على أنهم غزاة متوحشون، لا باعتبارهم حملة قيم ثقافية؛ ينبغي القيام معهم بتبادل ثقافي وفكري، بيد أنه خلال عملية الانتقال الثقافي والروحي للإسلام إلى مناطق الثقافة الغربية أو الثقافة اللاتينية جرت، أولاً في شبه جزيرة أيبيريا وفيما بعد بأماكن أخرى اتصالاتٌ بين ثقافات المسلمين والمسيحيين نجم عنها

(1) Imagining the Middle East, Thierry Hentsch, Black Rose BooJs Ltd., 1992

p.55.

(2) قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، ط1، (الكويت، 1998)، ص77-87.

(3) كلود كاهن، الشرق والغرب، ترجمة: احمد الشيخ، دار سينما للنشر، ط1، (القاهرة، 1990)،

ص 83.

اهتمام أكبر من جانب المؤلفين المسيحيين المتأثرين بالإسلام وبتعاليمه وقيمه الحضارية والثقافية" (1).

التطور الدلالي لمفهوم الآخر

تنحصر دلالة الغير بالآخر المتميز عن الأنا الفردية أو الجماعية، وتكون أسباب هذا التميز إما مادية، وإما عرقية أو حضارية، ومفهوم الغير في الاصطلاح الشائع يتحدد أحياناً بالسلب، لأنه يشير إلى ذلك الغير الذي يتميز عن الذات التي قد تتخذ منه مواقف، بعضها إيجابي وبعضها سلبي.

وفي المعجم العربي تستعمل لفظه غير عادةً للاستثناء؛ أي بمعنى سوى أو خلا، ومن ثمّ يتخذ مفهومه معنى التمييز والاختلاف. وما يعيننا هنا الترادف بين معنيي الغير والآخر، إذ يدل الآخر في المعجم العربي على معنيين: الأول زمني يدور حول التقدم والتأخر، والمعنى الثاني يدل على المغايرة، مع أنهما من جنس واحد. جاء في المعجم الوسيط: "تأخر عنه أي جاء بعده. وتقهر عنه أي لم يصل إليه، والآخر أحد الشئيين، ويكونان من جنس واحد" (2).

وفي المعجم الفرنسي، يلاحظ بعض التمييز بين مصطلحي الغير والآخر، إذ يتخذ مفهوم الآخر معنىً أوسع؛ يفيد كل ما يختلف عن الموضوع والذات؛ ويشمل الاختلاف في مستوى الأشياء. أمّا مفهوم الغير، فهو تضيق معنى الآخر وحصره في مجال الإنسان، ويقصد به الناس الآخرين" (3).

(1) عدنان سيلاجيتش، مفهوم أوربا المسيحية للإسلام، ترجمة: جمال الدين سيد، المركز القومي للترجمة، (القاهرة، 2016)، ص 46؛ للمزيد ينظر

Muslim – Christian Encounters, W . M . Watt London and New York, 1991., p. 83 – 88.

(2) ابراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر تركيا، (ذ.ن)، (د.ت)، ص 9.

(3) شحاته، المصدر السابق، ص 17.

وفي الإنكليزية "يشير المصطلح إلى الإنسان الآخر other من حيث كونه مختلفاً عن الذات الفردية (Self) والجماعية (Us) والمماثلة (Same). وهو محصلة علاقة الخصائص الجوهرية والظاهرية للهوية الشخصية. ويشير مفهوم المؤاخرة (Othering) إلى التصنيف الاختزالي للشخص، وحسابه مواطناً ثانوياً من فئة الآخر، والمؤاخرة أيضاً استبعاد من لا يسايرون الأعراف الاجتماعية للجماعة. والمؤاخرة في الجغرافيا الإنسانية: تهميش أشخاص لمجرد كونهم آخرين؛ وإقصاؤهم عن المجتمع الذي لا يسايرون أعرافه"<sup>(1)</sup>، لأنهم ينحدرون من بقعة جغرافية أخرى. أمّا في المعجم الفلسفي فالآخر موضوعه واسع حدّ التعقيد، وكلّ ينطلق حسب توجهه المدرسي، ولكن باختصار الآخر: " اسم خاص للمغاير؛ ويقال للأشخاص والأشياء والأعداد، ويطلق على المغاير في الماهية، ويقابله الأنا، والمقصود بالغير هنا ليس ما هو في الواقع بل كما أعياه أنا"<sup>(2)</sup>، وهذه هي النقطة الحساسة في البحث؛ إذ الآخر هو المتشكّل في الذهن عن الآخر؛ بمعزل عن حقيقته؛ التي إمّا نجهلها أو نحاول طمسها أو تشويهها.

وبالعودة إلى الجذور الأولية لتطور معنى الآخر نجد هيجل Hegel (1770-1831) يطرح مفهوم الآخر بوصفه جزءاً تأسيسياً للوعي الذاتي ويكمل قدرة الإدراك الذاتي على الاستبطان، وهذه الفكرة طرحها من قبل فيخته Fekhta (1762-1814)<sup>(3)</sup>. ثم عزز هذا الاهتمام إدmond هوسرل Hosrel (1859-1938) بالكشف عن مفهوم الآخر بوصفه أساس توافق الذوات. ثم توسعت دائرة

(1) New Fontana Dictionary of Modern Thought, The Other, The, Oxford. Third Edition, (1999) p. 620.

(2) د. عبد المنعم الحنفي، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، ط1، (2000)، ص29.

(3) The Encyclopedia of Philosophy. Edward Craig. London. (1967) Vol. 1, p. 76

الاهتمام بمصطلح الآخر لتشمل الدراسات التاريخية والنفسية متمثلة بالنزعة الظاهرية لـ هوسرل، والتي طورها لاحقاً الفيلسوف الفرنسي ريكور Recor (\*).

كانت إحدى إسهامات پول ريكور Recor تتمثل بالكشف عن تشابك عمليات تأويل الظواهر، وأكد على أن المهمة التأويلية هي تلاقي الذات والآخر بطريقة هادفة، ويصور ريكور الفكر على أنه نشاط تفسيري يسعى إلى الكشف عن معنى الوجود؛ من خلال تفسير الظواهر؛ يقول: "إن الفلسفة تظل ظاهرة لأنها تتطلع إلى قراءة المعنى الخفي داخل المعنى الظاهر؛ ومهمة الظاهرية تتمثل بإثبات فكرة مفادها: أن الوجود لا يصل إلى التعبير عن المعنى إلا من خلال التفسير المستمر لجميع الدلالات التي تظهر في العالم"<sup>(1)</sup>.

وتشكل المعرفة علاقةً بين طرفين، يُمثل أحدهما بالذات العارفة والثاني يمثل بموضوع المعرفة، و" هذا ما يدفعنا إلى طرح التساؤل التالي: هل نعرف الغير بوصفه ذاتاً أم موضوعاً؟، في اعتقاد سارتر الغير هو ذلك الذي ليس أنا، ولست هو. لكن بمجرد الدخول في علاقة معرفية معه يتم تحويله إلى موضوع. أي أننا ننظر إليه كشيء خارج عن ذاتنا ونسلب منه معاني الوعي والحرية والإرادة. هكذا تبدو كينونة الغير متعالية عن مجال إدراكنا ما دامت معرفتنا للغير معرفة انطباعية حسية"

(\* ولد پول ريكور Ricœur عام 1913 في فرنسا دخل جامعة ستراسبورغ عام 1948، وهي الجامعة الفرنسية الوحيدة التي تضم كلية بروتستانتية للاهوت. وفي عام 1950، حصل على الدكتوراه الدولة. وفي عام 1956، تولى منصباً في جامعة السوربون كرئيس للفلسفة العامة. وأصبح واحداً من أبرز فلاسفة فرنسا. كتب ثلاثة أعمال عززت منها كتاب: الرجل المعصوم ورمزية الشر الذي نُشر عام 1960، وكان جاك دريدا (صاحب نظرية التفكيكية) مساعداً لريكور خلال فترة الستينيات). ينظر:

Encyclopedia of World Biography: 20th century supplement, vol. 13, J. Heraty, 1987: "Paul Ricoeur. Geoffrey Bennington, Jacques Derrida, University of Chicago Press, p. 330.

(1) An Anthology of His Work. Charles E. Reagan, : Beacon Press, 1978, pp. 101- 106.

(1)، ورأي سارتر هذا عليه مأخذ؛ لأنه يفضي إلى مفارقات سلبية عن الآخر بينما الأمر أحياناً لا يحتمل هذا الإعدام.

إنّ مفهوميّ الغرب والشرق وظّفَا في سياقاتٍ مغايرة، واسهم هذا التوظيف في تشكيل صور نمطية عن الغرب وعن الشرق كليهما؛ إذ " تحوّل كلّ من الغرب والشرق إلى مفهومٍ ميتافيزيقي يقوم على تمركز ذاتي محاطٍ بتمركزاتٍ أخرى، ونسجت مكوناته بأشكالٍ متخيلة ونمطية تستلهم إمكانيات التهميش والإلغاء؛ ليفقد المفهوم أي إمكان للجدل والرأي والتواصل ... وهذا يقتضى الوقوف عند ما أنتجه الخطابُ من طرقٍ لإدراك الآخر، الأمرُ الذي يطرح أسئلةً محرّجة أمام الفكر المنتج له، في مرحلة تختلط فيها الرؤى والتصورات بالمصالح والرغبة في السيطرة" (2).

وهذا التشكّل في الواقع حصيلةٌ أحداثٍ وتغيراتٍ اعتقادية وحضارية عمت الشرق والغرب كليهما؛ وأنتجت نصوصاً أضحت بحكم المرجع، فضلاً عن تبدلاتٍ سياسية اقتضت ذلك التحول؛ لاسيما ظاهرة الاستعمار والهيمنة في العصر الحديث؛ والتي رافقت ما حدث من تخلف وغياب حضاري في الشرق وعلو أوربا اقتصادياً وسياسياً، وفي هذه الأجواء كان الاستشراق مشروعاً للكشف عن الشرق وأدى دوراً كبيراً في إحياء كنوز الشرق؛ لكنه بالمقابل أسهم وبعمق في تشكيل صورة نمطية عن الشرق.

#### التطور التاريخي لمفهوم الآخر العثماني:

وفي حالة الموقف الأوربي من العثمانيين يظل هاجس الرجوع إلى إرث الحروب الصليبية الوسيلة الأكثر رواجاً وسطوة؛ لأنها تمتلك عنصر إسباغ القداسة واعتماد أمثلتها الدموية وسيلة لاستحضار العداة؛ وهذه النزعة في الحقيقة هي الجانب الديني والتحريري لكنه يخفي وراء ظلاله دوافع أخرى ذات أهمية وثقل كبير في تشكيل تلك الصورة. ومع تنامي نشوء الدول القومية في أوربا حدثت انقسامات

(1) شحاته، المصدر السابق، ص 19.

(2) المصدر نفسه، ص 26 - 27.



كبيرة بينها وانعكست تلك الانقسامات على الموقف من التغيرات السياسية بعيدا نسبيا عن الدوافع الدينية التي كان تفرضها الهيمنة الكاثوليكية على الدول الأوروبية.

نعم غالبا ما جرى استخدام تخيلات الحروب الصليبية من حيث ربطها بالصراعات الحديثة واستغل الخطاب الديني بوصفه نمطا تحريزيا تعبويا، " فحرب القرم التي دارت بين الإمبراطورية العثمانية وروسيا بين سنتي (1853-1856م) عدت شكلاً من الحملات الصليبية لإتقاذ الأماكن المقدسة، على الرغم من تحالف بعض الأمم - التي كانت شاركت في الحملات الصليبية - مع العثمانيين المسلمين، لكن القنصل البريطاني في القدس زمن الحرب علّق قائلاً: الحملة الصليبية الأولى كانت ضد المسلمين الذين كانوا يسيطرون على الضريح المقدس، ولكن صيحات الحرب الآن موجهة بواسطة ممثلي الأمم نفسها التي حاربت في تلك الحرب الصليبية الأولى؛ لكنها الآن يتم خوضها دفاعاً عن المسلمين الذين يحوزون الكنز نفسه ضد قوة روسيا التي لم تصبح مسيحية تماماً؛ منذ عصر الحروب الصليبية ولها تطلعات تشتهي امتلاك الضريح المقدس" (1).

ومن هنا تحول نمط العداء للأتراك - بوصفهم عثمانيين - إلى رمز للشر ثم إلى مصطلح لاهوتي ضد الشر بعمومه، حتى وإن لم يكن العثمانيون طرفاً فيه؛ وهذا إيغال في توصيف الآخر على أنه قاعدة للشر لا ينساق في المنظومة الأوروبية، وهذا لم يقتصر على الكنيسة الكاثوليكية بل تعدى إلى خصومها أيضاً فمثلاً " كان الهجوم البروتستانتي على رأي البابا بشأن الحملات الصليبية - جزءاً من الهجوم على امتيازات الكنيسة الرومانية ونفوذها. وعلى الرغم من الاعتراض على مبررات الحرب المقدسة التي شنّها البابا فلم يتخلّ البروتستانت في إنجلترا عن مبدأ الحرب العادلة أي الحرب الدفاعية من جانب العالم المسيحي ضد (الكفار الأتراك!) على حد قولهم، وبينما كان لوثر والبروتستانت يشبهون الكنيسة الرومانية والبابا بالكفار

(1) إليزابيث سيبييري، صور الحروب الصليبية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ترجمة وتعليق: قاسم عبده قاسم، تحرير جونانان رايلي سميث، بحث منشور في كتاب تأريخ اكسفورد الحروب الصليبية، ج ٢، (القاهرة، ٢٠٠٩)، ص ٣٤٥ - ٣٤٦.

العثمانيين، كان الكاثوليك ينسبون إلى البروتستانت النعوت نفسها. وفي عام 1529م كان الشعار الحربي " من أجل حرب صليبية عامة بهدف وقف الكفرة والقضاء على الطائفة اللوثرية " (1).

وفي المقابل اعتمدت اللوثرية المزج ذاته بين العثمانيين وبين الشر من جهة، وبين العثمانيين وبين البابا من جهة أخرى. ففي " الرؤية النبوية للوثر تمت مساواة البابا بالمسيح الدجال. وفي الحقيقة فبعد إدراجه الإسلام في نطاق عصور الإيمان بالأخريات قال: "إن البابا هو روح المسيح الدجال والأتراك هم جسده" ولذا فإنه في قصائد الطقوس الدينية التي ألفها شخصياً تضرع قائلاً: ((احفظنا بكلماتك وامنح الموت للبابا وللأتراك الذين يريدون تقويض عرشك وعرش ابنك المسيح عيسى)). ومن الجلى تماماً أن لوثر كان يناضل ضد البابا والكنيسة على المستوى الروحي الخالص، ويناضل ضد الإسلام على المستويين السياسي والمادى بسبب خطره المستمر بعد وصول المسلمين أمام فيينا في عام 1029 (2).

ووفقاً لرأى دانيل نورمان Norman وتحليلاته الدقيقة " فإن لوثر حتى عام 1541م اتخذ موقفاً إيجابياً من الإسلام؛ وبعبارة أدق قاده الإسلام إلى انتقاد الطقوس الدينية الكاثوليكية، وبمقارنته بين تقاليد تأدية الشعائر المسيحية والإسلامية أثنى لوثر على كرم المسلمين وإخلاصهم، وعلى جدية أخلاقهم ودينهم، وخلص إلى أن كل مؤمن مسيحي يستمد قوته من الطقوس المرتبطة بالشموع؛ لا بد أن يشعر بالدونية بالنسبة للديانة التركية (3).

والملاحظ في خطاب لوثر أنه على الدوام يمزج بين مصطلح إسلام وبين تعبير (الديانة التركية، أو العثمانية)، ومع أن في هذا اختصار تعسفي إلا أنه يعبر عن عمق حضور العثمانيين في الذهنية الأوروبية. ويعبر من جانب آخر عن الذرائعية في الموقف من الآخر بحسب البعد المصلحي؛ أكثر من البعد الحقيقي المجرد؛ ف لوثر

(1) سيلاجيتش، المصدر السابق، ص115؛ وللمزيد ينظر: Op.Cit W . M . Watt.

(2) سيلاجيتش، المصدر السابق، ص 114.

(3) المصدر نفسه، ص 113.

ومنذ عام 1541م " غير موقفه جذرياً من الإسلام؛ إذ أعلن أنّ (أولياءهم مقدسات شيطانية) ، فما علة هذا التغيير المفاجيء؟! علته نابعة من أثر سياسي أكثر منه عقائدي، فحين تفتضي المصلحة يجري دمج ما هو سياسي بما هو عقائدي؛ ليخلص إلى إقصاء الآخر وتشويهه؛ وسبب التغيير في موقف لوثر يكمن في أنّ وجود العثمانيين في القارة الأوروبية شكّل كابوساً بالنسبة له أيضاً، معتقداً أنّ الإسلام يمكن أن يلتهم العالم المسيحي بأكمله<sup>(1)</sup>، وهذا الخوف من المد العثماني ذو أطر سياسية، وستجلى هذه الأطر لاحقاً في تمخضات حركة الاستعمار وقسم من الحركة الاستشراقية بوصفها داعمة معرفية للمد الكولونيالي.

" ففي عام 1530 صدر كتاب لوثر اعترافات اوجيست Ojset، لكن تم حرقه بعد فترة من صدوره في البندقية والتي كانت تسمى بالعاهرة التركية، وكان لوثر قد عضد ترجمة القرآن ونشره ليتمكن كل مسيحي من أن يرى هذا الكتاب ... الحافل بالحكايات والفظائع من كل لون"<sup>(2)</sup>.

ومع ذلك فقد أدت البروتستانتية دوراً غاية في السلبية في عرض الإسلام والعثمانيين خاصة إلى الشعوب الأوروبية، وقد قدم نورمان دانييل في مؤلفه العرب وأوروبا القروسطية نقداً لتلك الأحوال قائلاً: " قدم الإصلاحيون فكرة الإسلام كحالة داخلية يمكن أن يتم إلصاقها بأعداء العقيدة النقية أو خصومها، وبهذا المعنى كانوا قد جعلوا من الإسلام عدواً سيعيش لفترة طويلة في الخيال الأوروبي، ويسوق دانيال مثال الكاثوليك والبروتستانت الذين يشبهون خصومهم المسيحيين بالمسلمين، وهكذا فإنه في القرن السابع عشر رأى المبشر الكاثوليكي الأتراك على أنهم البروتستانت المحمديون"<sup>(3)</sup>.

واستمر هذا الحال طيلة القرن السادس عشر وامتد إلى القرن السابع عشر، إلا أننا ملزمون بالإشارة الإيجابية التي قدمها أمثال نورمان دانيال وآخرون، وهؤلاء بالفعل

(1) المصدر نفسه، ص 113.

(2) المصدر نفسه، ص 122.

(3) سيلاجيتش، المصدر السابق، ص 119.

قدموا صورة أكثر اندماجاً وقبولاً لفكرة الآخر؛ وهذا النشاط هو من ثمرات عصر التنوير وطرق الاستدلال الأكاديمي؛ بدل الميل الى التعسف في إصدار الأحكام، ولكن هؤلاء أنفسهم ما كانت كتبهم لتنجوا من المصادر من ذلك مثلاً: وضع كتاب الديانة المحمدية وهو من تأليف أدريان ريلاند في قائمة الكتب المحظورة (في عام ١٧٠٠م)<sup>(\*)</sup>، وأدريان هذا من أوائل الذين حاولوا إعطاء صورة علمية للآخر في التصور الأوربي. وهو "كاتب واقعي إلى حد ما، وقدم جهداً في نزع أساطير التصور الأوربي عن الإسلام؛ داعياً إلى احترام الديانة الإسلامية أو التركية، والتي انتشرت بسهولة وسرعة في مناطق آسيا وأفريقيا وأوروبا؛ ومحذراً من وصفها بأنها ديانة حمقاء وهرطقة للتعاليم المسيحية الأصلية. وتقودنا مثل هذه المؤلفات إلى عهد التقبل التنويري للإسلام"<sup>(1)</sup>. ويرى أدريان ريلاند عن حالة الكنيسة الأرثوذكسية وكيف كانت مؤسسة قوية في الشرق الأدنى لأن الكثير من المسيحيين اليونانيين كانوا يشغلون وظائف رئيسية في العهد العثماني. " وهذا ما جعل البابا Urban يدرك أهمية الاتحاد بين الكنيسة اللاتينية واليونانية، ليس لشيء سوى محاولة زيادة سيطرته على الكنيسة الشرقية من خلال إعطاء دفعة جديدة للدراسات في الكلية اليونانية في روما، ولذلك أعاد تنظيمها بالفعل عام 1624 لتكون أداة مهمة في المعركة بين روما وأوروبا البروتستانتية للسيطرة على الكنيسة الأرثوذكسية،

(\*) أدريان ريلاند (1676-1718) عالم واستشراقي هولندي بارز ورسام خرائط وعالمًا لغويًا. على الرغم من أنه لم يغادر هولندا أبدًا فقد قدم اسهامات كبيرة في اللغويات ورسم الخرائط في الشرق الأوسط وآسيا بما في ذلك بلاد فارس واليابان والأراضي المقدسة. من آثاره كتاب في الديانة المحمدية وفلسطين كما تبدو في الآثار القديمة. وله كتابان عن الديانة التركية أو المحمدية. هانوفر 1716 ، 1717. حصل على لقب الأستاذية وأصبح أيضاً شاعراً مشهوراً. في عام 1718 ، توفي عن عمر يناهز 41 عاماً بسبب مرض الجدري في أوترخت.

ينظر ترجمته في كتاب السلطة والدين في العصر الباروكي الإيطالي:

Power And Religion in Baroque Rome, Barberini Cultural Policies, Peter Rietbergen. BRILL LEIDEN • BOSTON 2006. p.321

(1) عدنان ، المصدر السابق ، ص122.

وبالتالي على الحياة السياسية والاقتصادية في شرق المتوسط<sup>(1)</sup> أي بمواجهة امتداد العثمانيين.

نعود الآن إلى تفحص صورة الآخر العثمانية وتحليل دوافع تشكلها وتناميها بصورٍ مختلفة؛ بحسب الأزمان والأحداث والظروف التي ضربت بثقلها على علاقة الشرق عموماً والغرب، وسنجد أنّ الآخر العثماني الذي تشكل منذ نهاية القرن السابع عشر تختلف كلياً عن صورته فيما قبل ذلك بشكل عام.

" كان لدى الأوروبيين في أواخر القرن الخامس عشر، وفي القرن السادس عشر أسباباً قوية لاعتبار العثمانيين - الذين كانوا يسمونهم الأتراك عادة - تهديداً خطيراً، فقد مرت فترات طويلة بدأ أثناءها أنه لا يوجد جيشٌ أو دولة أوروبية تستطيع مقاومة القوات العثمانية، ولكن برغم من أن الدولة العثمانية كانت مسلمة رسمياً، لم يعدّ التهديد الذي مثلته لأوروبا تهديداً دينياً أو إيديولوجياً ... ولم تكن علاقات الدول الأوروبية المسيحية بالعثمانيين محكومة بالدين وإنما بسياسة المنفعة ومصحة الدولة، بصورة لا بد أنها كانت ستصدم المسيحيين اللاتين في القرون الوسطى<sup>(2)</sup>.

كانت الدولة العثمانية أكثر انفتاحاً وقبولاً للآخر سواء على مستوى سياسي أو مستوى أخلاقي؛ وهذا ما شاهده ولمسه الأوروبيون أنفسهم طيلة ثلاثة قرون تقريباً، أي المدة ما قبل ضعف الدولة العثمانية، ووجدوا في الدولة العثمانية - بحسب ما يرى زكاي لوكمان Lokman تسامحاً وقبولاً ومصحة ما كانوا ليجدوها في ظل بلدانهم آنذاك؛ فقد كانت " فالتحوّل إلى الإسلام كان يفتح للمسيحيين الأوروبيين الموهوبين والطموحين الطريق إلى أعلى المناصب في الدولة والجيش العثماني، ولم يكن من استغلوا الفرصة واصبحوا تحت مظلة الدولة العثمانية بل قليلين؛ بل صار كثيرٌ من النبلاء المسيحيين في البلقان اتباعاً للعثمانيين، وحاربوا إخوتهم المسيحيين كجزء من الجيش العثماني، وكانت الإمبراطورية العثمانية، متسامحة مع المسيحيين واليهود وتتركهم في سلامٍ إذا لم يحدثوا اضطرابات، ويدفعون الضرائب، فرحبت

(1) Power And Religion in Baroque Rome ,Op.Cit .p.400..

(2) لوكمان، المصدر السابق، ص 93.

بالمنفيين والمنبوذين القادمين من أوروبا المسيحية الأقل تسامحاً بكثير، وينطبق هذا على اليهود الذين طردوا من أسبانيا حين سقطت غرناطة آخر بقعة في أسبانيا، وهذا ينطبق أيضاً على اللاجئين البروتستانت من الملاحقة الكاثوليكية والمنشقين<sup>(1)</sup>.

نعم كانت القوة العثمانية قوة مجلجة وذات هيبة وباعثة للخوف لما تمتلكه من عناصر القوة والاجتياح وهذا أمر يسبب هلعاً وخوفاً لأصحاب المصالح من الأمراء والملوك؛ الأمر الذي دفع الكثير منهم إلى تفعيل عنصر التحريض ضد العثمانيين، وجرى تصويرهم بصورة تنم عن الخوف والكراهية والاستبشاح من خلال سحب بأسهم الحربي لمن يقاومهم ويصادمهم إلى منحى عام يستهدف الناس عموماً؛ ولقد جرى تصويرهم سواء من خلال الخطب الدينية أو الأدب الشعبي على أنهم "قومٌ قساة يتسمون بالعنف والتعصب، وبطرق تعتمد على صور هزلية عن الإسلام ظلت سائدة طويلاً، بالإضافة إلى العديد من القصص الشنيعة والمثيرة عن الفضائح الجنسية المزعومة للترك، والتي قيل (إنها جرت في حريم السلطان). غير أن بعض الأوربيين كانوا قادرين على تبنى موقف أكثر موضوعية تجاه العثمانيين، فكان كثير من الأوربيين المتعلمين في القرن السادس عشر مفتونين بالقوة والثروة الفائقتين للدولة العثمانية - فهم الذين أطلقوا على السلطان سلىمان لقب العظيم، بينما العثمانيون الذين أطلقوا عليه لقب القانوني - وأرادوا أن يفهموا سر نجاح الإمبراطورية بالمقارنة بين الفضائل العثمانية وعيوب مجتمعاتهم<sup>(2)</sup>.

وليس عسيراً أن يجد المرء كثيراً من الأمثلة التي تثبت هذه الأحوال؛ وهي شواهد تمثل مشارب مختلفة ولا تقتصر على العامة من الناس؛ بل تطال المتنفذين وأهل العلم؛ صحيح أنها شواهد تجد من يناقضها من لدن المتحاملين في كل وقت إلا أنها اظهرت وثبتت، وتصف الواقع العملي لا الواقع الشعاري التحريضي.

ومن تلك الشواهد ما ذكره جي-ر دي بوسبيك Bosbek - الذي خدم سفيراً لإمبراطور الهابسبورج (الإمبراطورية الرومانية) في البلاط العثماني بين عامي

(1) المصدر نفسه، ص 94.

(2) لوكمان، المصدر السابق، ص 95.

١٥٥٤ و ١٥٥٤ - من مدح للنخبة المدنية والعسكرية العثمانية باعتبارها نخبة تختار على أساس الكفاءة: ... لا يدين أي رجل بمكانته إلى شيء سوى جدارته الشخصية وشجاعته؛ وما من أحد يتميز عن الآخرين بفعل ميلاده، بل يُسبغ الشرف على كل إنسان وفقاً لطبيعة واجباته ... وعلى ذلك كان الشرف والمناصب الإدارية عند الأتراك مكافآت على القدرة والجدارة؛ ولا يحصل غير الشرفاء والكسولون على تميّز، وإنما يبقون مغمورين، لهذا نجح الأتراك وأصبحوا عرقاً سائداً ويوسعون حدود حكمهم، ولاحظ بوسبيك وباشمناز ملحوظ، أن «طريقتنا مختلفة تماماً؛ ليس هناك مكان للجدارة، وإنما يعتمد كل شيء على الميلاد؛ فاعتباراته وحدها هي التي تفتح الطريق إلى موقع رسمي عال»<sup>(1)</sup>.

ومن ذلك ما كتبه القانوني والمؤرخ الفرنسي الكبير جان بودان Bodan (١٥٢٩-١٥٩٩) في المدة ذاتها تقريباً " رافضاً ادعاءات أسرة الهابسبورج في لقب الإمبراطور، وأصرَّ على أنه إذا كان ثمة في مكان ما سلطة تستحق اسم إمبراطورية فإن السلطان العثماني هو بالتأكيد الذي يمارس مثل هذه السلطة: فهو يحتل أغني الأراضي في آسيا وأفريقيا وأوروبا؛ وتمتد ممتلكاته عبر المتوسط، باستثناء بعض الجزر، وسيكون من العدل اعتبار السلطان العثماني وريث الإمبراطورية الرومانية.

واعتبر المنظر السياسي العظيم نيكولو ماكيافيلي (1496-1527) الإمبراطورية العثمانية نموذجاً على أحد نوعين من الدول فعلى خلاف دولة مثل فرنسا يحكمها ملك وأرستقراطية وراثية معاً، يحكم الإمبراطورية العثمانية أمير وخدمه، يساعده في إدارة إقليمه منة منه وفضلاً، وليست لهم امتيازات وراثية، ولا قاعدة مستقلة للسلطة. ولم يصنف ماكيافيلي الإمبراطورية العثمانية كدولة قائمة على الطغيان، برغم قوله بأن النوع العثماني من الدولة يعطى الحاكم سلطة شخصية أكبر، بل شعر أنها تتحلى بالكثير من الفضائل المرتبطة بالإمبراطوريات القديمة العظيمة، بما فيها روما<sup>(2)</sup>.

(1) المصدر نفسه، ص 95 .

(2) لوكمان، المصدر السابق ، ص 95-96.

إن كلام جان بودان وجير جيسلون وحتى ميكافلي ليس دعاءً شخص مسلّم بل أقوال واعترافات أناس من قلب النخبة الفكرية والسياسية الأوربية. واطّخر ما في تلك الاعترافات أن الآخر العثماني كان أكثر رصانة في البعد الأخلاقي وفي التعامل الإنساني مع رعاياهم ومع مخالفيهم، ثم أنّ تلك الاعترافات تمثل مقارنة مهمة مع واقع أحوال الآخر العثماني بالنمط السياسي الأوربي آنذاك، وهذه المقارنة هي التي تكشف سر تفوق وتمكّن العثمانيين على سواهم.

لكن و" قرب نهاية القرن السادس عشر، بدأ يحلُّ محلّ المواقف المادحة للعثمانيين بين الأوربيين الغربيين المتعلمين وجهات نظر أقلّ إيجابية، فكما قررت المؤرخة الفرنسية نوسوت فالنسي Valnsy في كتابها مولد الطاغية **The Birth of the Despot** المنشور في ١٩٨٧، عن رؤية أعضاء الصفوة الحاكمة في فينيسيا للإمبراطورية العثمانية التي كانوا يعيشون في ظلها العملاق: من هذه اللحظة تنتمي الإمبراطورية العثمانية إلى أفق مختلف حيث راحت تركز التقارير على عدم التوافق بين الإمبراطورية والنظام الفينيسي... فمقدمتهم الأساسية هي أن النظامين يختلفان عن بعضهما. وبدأوا يعتبرون كثيراً من الأشياء نفسها التي كانوا قد أبرزوها من قبل كعلامات على فضائل العثمانيين عيوباً، وعلامةً على دنو منزلتهم، وكلما تقدمنا في القرن السابع عشر، قل ما يعتبره الفينيسيون وغيرهم من الأوربيين جديراً بالإعجاب في المجتمع العثماني، وبدلاً من ذلك أصبحوا يصورون «الأتراك» كأجلاف جهلة عديمي الفاعلية ولا عقلايين. وخبث الصورة القديمة للدولة العثمانية كدولة كفوءة عادلة فاضلة؛ متسامحة تقوم على الجدارة، ليحل محلها تصويرها كدولة تتسم بالفساد والقمع"<sup>(1)</sup>.

وهنا نلاحظ أن الآخر العثماني كان عرضة للظروف والأحوال والمصالح أكثر من كونه ذاتاً تخضع لمعايرة أو محاكمة قيمية لذاتها، ولا شك فإن هذا التبدل في التصور الأوربي للآخر العثماني ارتبط بالتطورات التي حدثت في الإمبراطورية العثمانية منذ بداية القرن السابع عشر، " ففي ذلك الزمن بدأت الإمبراطورية العثمانية تفقد تفوقها

(1) المصدر نفسه، ص 99-100.



العسكري الذي تميزت به على أوروبا، مع أن الجيوش العثمانية كانت قادرة على محاصرة فيينا، ومنذ ذلك الحين صار العثمانيون نموذجاً لما أصبح المفكرون السياسيون الأوروبيون يسمونه الاستبداد الشرقي، " وهو مفهوم اكتمل تطوره على يد المفكر والقانوني الفرنسي مونتسكيو (Montsokyo 1989-1755)، فقد سخر في كتابه الخطابات الفارسية Persian Letters، والذي كتبه على لسان اثنين من الرحالة الفرس إلى فرنسا. أما في كتابه الروح القوانين The Spirit of the Laws فقد مارس تأثيراً عظيماً على الفكر السياسي في أوروبا والمستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية الولايات المتحدة الآن<sup>(1)</sup>.

لكن لو تفحصنا مجمل تحولات هذه الأحكام والتصورات لدى مونتسكيو عن الدولة العثمانية وقارناها بمقاصده التي كان يرمي إليها والتي تتمثل بتوجيه آراءه ونقوده إلى السلطات الحاكمة في أوروبا آنذاك للمسنا مدى ذكائه في تحويل نمط الخطاب إلى محمول آخر وهو الدولة العثمانية؛ بينما هو يريد استهداف أنظمة الحكم الأوربية تحديداً. فـ " شجب مونتسكيو للاستبداد العثماني أكثر صلة بالجدل الدائر في أوروبا نفسها منه بالواقع العثماني، والمثل الكريه الذي قدمه عن العثمانيين منحه طريقاً آمناً لنقد ما اعتبروه ميولاً استبدادية عند الملوك الأوربيين ... ولم يقبل كل المفكرين الأوربيين تأكيدات مونتسكيو بشأن الاستبداد الشرقي، لكن قدر للمفهوم أن يعيش ويمتدّ بأشكال مختلفة عبر القرنين التاسع عشر والعشرين، فقد وظف كارل ماركس Carl Marx وماكس فيبر Maks Weber فيبر وآخرون مفهوم الاستبداد الشرقي ليساعد على تفسير: لماذا توصل الغرب اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً إلى الهيمنة على العالم<sup>(2)</sup>. وهم يعلمون أنّ الأنظمة الجائرة التي كانت تحكم أوروبا؛ والتي أجبرت الشعوب الأوربية على القيام بثورات دموية من أجل نيل حريتها؛ من مثل الثورة الأمريكية ثم الثورة الفرنسية؛ وهي أمثلة أكثر وضوحاً على الاستبداد من المثال العثماني.

(1) لوكمان، المصدر السابق، ص 102.

(2) المصدر نفسه، ص 102-103.

وبهدف ربط هذا المستوى التطوري لما آل إليه مفهوم الآخر العثماني في القرن التاسع عشر فصاعداً نستشهد بأحد النماذج التي قدّمت صورة اقصائية للآخر العثماني؛ وهي كتابات إدوارد فريمان<sup>(1)</sup>، فعلى الرغم من كونه عاش في العصر الفكتوري\* الذي شهد تغييراً نسبياً في المناهج التاريخية التي بدت أكثر دقة وحصافة في موقفه من الآخر الشرقي إلا أنه احتفظ بالمنظية السارية تجاه صورة الآخر الشرقي والتي كانت سائدة قبل العصر الفكتوري، وهو يلح على تسمية المسلمين بالـ سراسين وضمن هذه التسمية في عنوان كتابه: **The History and Conquests of the Saracens**.

وهو على دراية كاملة بتأثير الكتابات التاريخية على الآخرين؛ مما دفعه ومنذ وقت مبكر إلى نقد من لا يتوافقون ورؤيته للآخر الشرقي إلى القول: " قد تكون هناك بعض المزايا في أطروحة مؤلفة، ليس من لدن عالم شرقي معروف، ولكن من لدن شخص ينظر إلى التاريخ الشرقي بعيون غريبة، وبالتالي يميل بشكل طبيعي إلى إيلاء

(1) إدوارد أوغستوس فريمان (1823 - 1892) مؤرخاً بريطاني ومهندس معماري وفناناً وسياسياً ليبرالي. شغل منصب أستاذ للتاريخ الحديث في أكسفورد، وكان له أثر في انتفاضة البلقان في البوسنة والهرسك (1874-1878) ضد الإمبراطورية العثمانية. من أشهر أعماله: تاريخ الفتح النورماندي لإنجلترا. وتاريخ فتوحات السراسين (المسلمين). وكتابات فيرمان واسعة الطيف وشملت تواريخ الكثير من الأمم بما في ذلك تواريخ أوروبا وإنجلترا على الخصوص.

ينظر: The Life and Letters of Edward A. Freeman, Stephens, W R W (1895a). D.C.L., LL. D. Vol. I. London; p1-6. New York: Macmillan and Co.

\* العصر الفيكتوري في تاريخ المملكة المتحدة هو " مدة حكم الملكة فيكتوريا من 20 يونيو 1837 حتى وفاتها في 22 يناير 1901. وتبع هذا العصر الفترة الجورجية، بدأت هذه الفترة مع إقرار قانون الإصلاح 1832. كان هناك دافع ديني قوي لمعايير أخلاقية أعلى بقيادة الكنائس الإنجيلية القائمة في إنجلترا. ومن الناحية الأيديولوجية، شهد العصر الفيكتوري مقاومة للعقلانية التي ميزت الفترة الجورجية وتحولاً متزايداً نحو الرومانسية والتصوف. أما من الناحية التكنولوجية فقد شهد هذا العصر ابتكارات هائلة أثبتت أنها مفتاح قوة بريطانيا وازدهارها. بدأ الأطباء والعلماء في الابتعاد عن التقاليد القديمة. وتشير الدراسات إلى أنه على أساس نصيب الفرد فإن عدد الابتكارات المهمة في العلوم والتكنولوجيا والعابرة العلمية بلغ ذروته خلال العصر الفيكتوري".  
أنظر:

Dixon, Nicholas. From Georgian to Victorian". History Review. 34-36. 2010 .  
Archived from the original on 27 January 2013.London.

قدر من العناية بأجزاء موضوعه سواء من حيث الارتباط أو التناقض، وله بعض التأثير على تاريخ الغرب"<sup>(1)</sup>.

يقول فيليب الموند: "اعتمد فريمان على خطابات راسخة عن الآخر ليقدم بشكل الشرق على أنه مغاير للغرب وأدنى منه، وقد ربط المسيحية بالتقدم الغربي وأبدى دعاءً شرساً للعالم غير المسيحي، ويمعن بتحليلات مفصلة تصوير الشرق على أنه آخر، وهذا التحليل يتحدى العلم الذي يشير إلى أن الفيكتوريين أنتجوا إعادة تقييم إيجابي وموضوعي للإسلام"<sup>(2)</sup>. إذ بينما بدأت آراء مختلفة عن الإسلام والشرق عموماً بالتداول بحلول منتصف العصر الفيكتوري لاسيما في إنكلترا فقد "احتفظ فريمان بموقف تقليدي وتصادمي تجاه الدين المنافس، بوصفه عقيدة يرى أنها تمثل بربرية الشرق، وتعدّ هذه المقالة ملخص نظرتة إلى أوروبا المسيحية كمجتمع ثقافي يكافح ضد تجاوزات العالم الإسلامي. بينما يفترض أنّ الخطابات الاستشراقية تقوي الغرب وترتبط بالإمبريالية، وتركز سرديات فريمان حول الشرق على التهديد الذي يشكله وجود الشرقيين في حدود العالم المسيحي وتتوج بمطالبة بإزالة الآخر التركي بدلا من أن تهيمن عليها أوروبا"<sup>(3)</sup>.

لم يكن فريمان واثقاً من التقدم الحتمي للجنس الآري، لذلك يظهر التاريخ في دراساته الشرقية سجلاً لصراعات سياسية خطيرة على السلطة بين حضارات غير متوافقة جوهرياً، حرب داخلية قديمة بين الشرق والغرب، بين الاستبداد والحرية، بين دولة اجتماعية تقدمية وأخرى راكدة"<sup>(4)</sup>.

(1) E.A. Freeman, The History and Conquests of the Saracens (Oxford: John Henry and James Parker, 1856), p. v; further page references appear in parentheses.

(2) Western Images of Islam 1700–1900, 412 Albert Hourani, Australian Journal of Politics and History(2003), and Islam and the West, Bernard Lewis, (Oxford: Oxford University Press, 1993).

(3) Rana Kabbani :Terror of the World' to the 'Sick Man of Europe': European Images of Ottoman Empire and Society from the Sixteenth Century to the Nineteenth (Oxford: Peter Lang, 2002)..

(4) Freeman Papers, ref. EAF/2/2/14, John Rylands University Library. By: E.A. Freeman, Islam and Orientalism. VickyMorrisroe. P.4.

إنّ رؤية فريدمان هذه تتناقض مع سلوك حكومته إذ أنّ بريطانيا - وطيلة أزمان مختلفة - وقفت مع الدولة العثمانية ضد دول أوربية مسيحية. فقد " وقع العثمانيون تحالفات رسمية وقاتلوا بنشاط في مصر مع بريطانيا، ضد فرنسا، وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، وخلال حرب القرم 1853-1856 قاتل العثمانيون والبريطانيون والفرنسيون معاً ضد روسيا، وفي عام 1856، دخلت الإمبراطورية العثمانية في تحالف الأمم، وهو اعتراف رسمي بتحولها من خصم إلى مشارك ضمن الدول الأوروبية، وتعمل كواحدة من بين العديد من الدول، باستخدام الدبلوماسية والحرب في الساحة السياسية الأوروبية، إلا أنها ظلت غريبة، فقد اعتبروا بشكل متزايد أنّ الإمبراطورية العثمانية جسم غريب، مخيم على الأراضي الأوروبية<sup>(1)</sup>. على الرغم من كل هذه السلوكيات المتناقضة فالأمر ليس إقصاء يتعلق بموقف اعتقادي وأخلاقي؛ بل يتعلق بالدرجة الأساس بالمصالح، وهذا الحال رد حاسم على الكثير مما يراه المؤرخون المتطرفون برد الخلاف مع الآخر العثماني إلى اعتبارات أخلاقية وعقائدية. لاسيما آراء فريمان.

ركز فريمان " عمله بشكل أساسي على تاريخ الغرب وكانت أهم أعماله التأريخ للغزو النورماندي (سنة مجلدات، 1867-1879)، والعلماء المعاصرين ركزوا على مدح فريمان لدستور إنجلترا القديم واعتقاده بأن المؤسسات السياسية المشتركة للدول الأوروبية أثبتت أصلها الآري المشترك يتطلب فهم فريمان كمؤيد لتفوق العرق الآري مراجعة كتابيه مهملين عن الشرق: تاريخ غزوات المسلمين (1856) والقوة العثمانية في أوروبا (1877). " ركزت الدراسات الحديثة عن فريمان، كالتالي أجراها جون بورو وبيتر ماندلر، على محاولته الجمع بين السرد اليميني التقليدي عن الحرية الإنجليزية والأفكار الجديدة حول الخصائص العرقية الغربية وقد قدمت تلك الدراسات فريمان على أنه "الأكثر يمينة على الإطلاق".

(1) The Ottoman Empire, 1700-1922 Second Edition. DONALD QUATAERT, University of New York. 85-86

ومؤرخو منتصف العصر الفيكتوري و"أعظم مؤرخ قومي في القرن التاسع عشر". وهو الذي ربط المسيحية بالتقدم الغربي وأبدى عداواً شرساً تجاه العالم غير المسيحي. ووصف الشرق كأخر منقسم عن الغرب وخطاب تركز الروايات عن الشرق على أنها التهديد الذي يشكله وجود الشرقيين داخل حدود العالم المسيحي وتتوج بالمطالبة بإزالة "الأخر" التركي من أوروبا بدلاً من السيطرة عليها"<sup>(1)</sup>.

لذلك أصرّ فريمان على أن تحالف بريطانيا مع تركيا يجب أن ينتهي، وجند نفسه على رأس حركة احتجاجية عُرفت باسم التحريض على الفظائع البلغارية<sup>(\*)</sup>؛ " حيث قام

(1) Eastern History with Western Eyes': E.A. Freeman, Islam and Orientalism. VickyMorrisroe. Pp. 1-4. Journal of Victorian Culture.

(\*) كانت دوافع فريمان تلقى دعماً عملياً من آخرين يشاطرونه رؤاه وتطلعاته وعلى رأسهم رئيس وزراء بريطانيا كلادستون، صاحب الجهد الدعائي الأكثر عدوانية ضد المسلمين والعثمانيين على الخصوص. ويذكر جيمي سولت بخصوص قضية البلغار تلك قائلاً: " عندما تمرد البلغار أثار ولیم غلادستون (1809-1898) كراهية الأتراك ووصفهم بأنهم: «إنهم ليسوا المعتدلين المحمديين وليس لهم شهامة صلاح الدين الأيوبي، ولا هم المثقفون المسلمون في الأندلس». هذا ما كتبه في منشوره الشنيع: الفظائع البلغارية والمسألة الشرقية ١٨٧٩. يقول: وكانوا - ويعني الأتراك - أحد أكبر الأمثلة لأعداء الإنسانية، وحيثما ذهبوا خلفوا وراءهم خطة عريضة من الدم، وحيثما حل سلطانهم غابت المدنية عن الأنظار. ولكن فظائع أكبر من الفظائع البلغارية حلت بالمسلمين بعد ذلك، عندما أرسل الجنود الروس لمحاربة العثمانيين = اسم المسيحية في نيسان عام ١٨٧٧، هم والمتطوعون البلغار الذين ركبوا قطارات الجيش الروسي، بحثوا المسلمين حيثما وجدوهم، وقرية بعد قرية جرى نهبها وتدميرها، وهاجمت العصابات البلغارية قوافل النازحين المسلمين الذي خرجوا من المناطق التي استولى عليها الروس، وضحايا هذه النوبة من القتل والاعتصاب شملت اليهود الذين كانوا آمنين ومحبيين تماماً تحت حكم العثمانيين المسلمين. أكثر من 260 000 مسلم قتلوا أو ماتوا بسبب الحرب، وأكثر من نصف مليون مسلم طردوا من بلغاريا، وهم يمثلون أكثر من 50% من مسلمي بلغاريا، ولم يكن لدي (غلادستون) أي إشارة إلى هؤلاء أيضاً، لم يكن هناك بيانات ومناشير ولا دعاية عن هذه الفظائع للتحديث فيها عن المسلمين المنهوبين والذين قتلوا على أيدي المسيحيين، وحصل تطهير ديني آخر للمسلمين الذين بقوا في المناطق الأوروبية من السلطنة، في حرب البلقان في عام ١٩١٢ - ١٩١٣".

بالتحريض ضد القوة العثمانية، وحاول استخدام التاريخ الشرقي لإثبات أنه طالما بقيت أي أرضٍ مسيحية تحت حكم الترك، سيكون هناك استياء واضطرابات وثورات ومذابح؛ ستكون هناك صعوبات وتعقيدات دبلوماسية. يعتقد فريمان أن هذا التاريخ كان ضرورياً بشكل خاص لأن بريطانيا كانت مخدوعة من قبل رئيس وزراء "يهودي" الذي كان بطبيعة الحال متعاطف شرقي<sup>1</sup>. ويعني هنا دزرائيلي **Dezraili** رئيس وزراء بريطانيا آنذاك.

ونظرةً فريمان عن سلوك دزرائيلي فيها قصور شديد لا ترقى إلى حصافة دزرائيلي وحكته ومكره الشديد؛ ثم تثبت انجراف فريمان وراء عواطفه الشخصية، فدعم دزرائيلي للإمبراطورية العثمانية على وفق ما يرى جوناثان باري "كان جزءاً من سياسته لحماية الطرق المؤدية إلى الهند البريطانية"<sup>(2)</sup>، ومهما كانت دوافع دزرائيلي، فقد أساء التعامل مع الأزمة الشرقية على نحو كارثي من وجهة نظر الليبراليون مثل فريمان وجلادستون واعتبروا سلوكه دليلاً على الركود والنخبوية والتعاطف الشرقي من حكومة المحافظين، بل أن فريمان وصف سياسة دزرائيلي الخارجية "غير شرعية وجريمة أخلاقية ومن أعظم الشرور"<sup>(3)</sup>.

والواضح على فريمان القصور في المصادر الشرقية عن الشرق وهو يعتمد اعتماداً شبيه كلياً على المصادر الغربية؛ لذلك فهو مشبع بالتحامل على الشرقيين ومن ثمة العثمانيين انطلاقاً من ثقافته المغلقة تلك. وهذه المعضلة تناولها المستشرق البريطاني هاملتون جيب **Hamilton Jibb**، ومن قبله أستاذه **ثوماس آرنولد Arnold** الذي درس أيضاً بدوره على يد فريمان، إذ ذكر الأخير: شواهد من حضارة الإسلام، مدلاً على حجم التعسف الذي وقع على المسلمين جرّاء تلك المناهج، يقول: بقي

ينظر: جيرمي سولت، تفتيت الشرق الأوسط، ت نيبيل صبحي، دار النفائس، 1، (سوريا، 2008)، ص 46-45.

(1) المصدر نفسه، ص 46.

(2) Parry, jonathan. Politics of Patriotism, pp. 323–86, and W.E. Gladstone, Bulgarian Horrors and Russia in Turkistan, with Other Tracts (London: John Murray, 1876).

(3) Stephens, Life and Letters, published in 1877. The Turks in Europe', was written as the first in a series entitled Politics for People, published in II,P, 110.

الإسلام حتى في المراجع الكبرى التي كرست لاستعراض ديانات العالم الديانة الوحيدة التي جرى تناولها بقسوةٍ وتعصب، وهناك العديد من الشواهد على عدم موضوعية السياسة والصحافة البريطانية في تناول الإسلام<sup>(1)</sup>.

ومن بين المصادر الرئيسية لـ فريمان كان هناك معلمان معترف بهما عموماً لمعرفة تاريخ الشرق، الأول كتاب سيمون أوكلي تاريخ العرب (1708) ومصحف جورج سيل (1734)، تم أيضاً مواد من أعمال الاستشراق الحديثة مثل كتاب جون مالكولم المؤلف من مجلدين تاريخ بلاد فارس (1815)<sup>(2)</sup>.

وبالمحصلة سواء القينا الضوء على عينة من الكتابات المؤرخين الأوربيين أو المستشرقين فإننا نلاحظ أن التركيز على الجانب السياسي ولاسيما المأخوذ من المصادر الغربية هو المعلم الأبرز، بينما تفتقر المكتبة الأوربية إلى دراسات مستفيضة حول الأخر العثماني تتناول بسعة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بخلاف الدراسات الحديثة فيما بعد العصر الفكتوري فصاعداً، صحيح أن المؤلفات الحديثة كان موضوعية وأكثر جذرية وتناولت موضوعات بعيدة عن موضوعات الحروب والتنازعات السياسية إلا أنها وقعت في تشكيل صورة الأخر العثماني بوصفه آخر لكن هذا الآخر اخذ على انه مغاير وليس بالضرورة عدواً؛ كما هو الحال لدى فريمان، فما كتبه لويس على الرغم من كونه معاصراً يعد امتداد لفكر فريمان نفسه لكن بأدوات مغايرة وخطاب مختلف، يتحدث عن ماضي سلف وعن عصر التدهور دون الحديث عن عهود القوة وعن عناصر الابداع والتحضر والنماء في تاريخ الدولة العثمانية فيما قبل تدهورها، بينما تحدث فريمان عن لحظة آنية أسهم هو نفسه فيها كما مر بنا سابقاً.

وكما تذكر مليسا تاليور Malissa Anne Taylor فـ "تميل الكتب المدرسية القياسية التي أنتجها المستشرقون مثل جيب وبوين وبرنارد لويس في الخمسينيات والستينيات التركيز على عصر التدهور وعملية الغرلة للإمبراطورية العثمانية.

(1) The Study of Arabic. T. W. Arnold. Bulletin of the School of Oriental Studies, University of London, Vol. 1, No. 1. (1917), pp. 112-121.

(2) المصدر نفسه، ص 7-10.

الإمبراطورية العثمانية حتى الشرق الأوسط تحولت بفعل تأثير الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ومع ذلك كانت تلك الدراسات جديرة بالملاحظة بسبب قلة المعلومات التي كانوا قادرين على نقلها عن الإمبراطورية العثمانية قبل عملية التغريب. ومن الأمثلة على ذلك مناقشة حيازة الأرض، وعائدات الأرض وحالة الفلاحين. لم يتمكن كّب وبوين من الاستشهاد بأية أرقام، لكنهما ذكرا أن الزراعة في الأراضي العربية قد ركّدت بسبب الأدوات البدائية، والافتقار إلى التحسين التكنولوجي وعبء الربا الرهيب عدم القدرة على إعطاء المزيد من التفاصيل الملموسة حول الانخفاض في وقالوا إن الإنتاج والسكان الفلاحين يرجعان إلى نقص المصادر<sup>(1)</sup>. إن ميلسا تحيل الافتقار إلى السعة والتنوع في كتابات من ذكرتهم إلى قلة المصادر بينما الأمر الأكثر واقعية كونهم هم أنفسهم مشغولون في إبراز الآخر العثماني بالصورة التي تحدثوا عنها لانهم يمثلون مؤسسات سياسية كانت بحاجة إلى مواقفهم وكتاباتهم تلك. فالتسييس قائم على قدم وساق في كتاباتهم سواء برغبتهم هم كما هو الحال مع فريمان، أو بدافع مدرسي مرتبط بعلاقات مع سياسات الحكومات كالحال الذي نجده لدى ثوماس ارنولد في كتابيه: الدعوة إلى الإسلام وكتابه الخلافة.

#### نمطية الآخر العثماني في كتابات المستشرقين

تمثل جهود الاستشراق أحد المظاهر الأكثر وضوحاً وجلاء في التعبير عن ثنائية الشرق والغرب، فإذا كان الكتابات التاريخية والفلسفية وفلسفة التاريخ تتناول الآخر بالعموم فإن هد الاستشراق موجة صراحة على التعريف بالآخر الشرقي أو الكشف عنه سلبياً أو إيجابياً.

نشأ الاستشراق بوصفه نمطاً من فعاليات التمرکز الغربي حول الذات، "وقد شكل الشرق موضوعاً للتفكير نتجت عنه دراسات وأبحاث تاريخية مختلفة بدا فيها الشرقي

(1) Fragrant Gardens and Converging Waters: Ottoman Governance in Seventeenth Century Damascus. By Malissa Anne Taylor Doctor of Philosophy in History. University of California. . 2003. P.6.



نمطاً مفعماً بالأساطير والتصورات المغلوطة وظهر فيها الشرق عموماً مغايراً لواقعه، مع أنّ الشرق ليس كياناً واحداً، لكنّ الأبحاث والدراسات الاستشرافية صورتها بناءً على وفق مسبقات وأحكام التمرکز الغربي. فالفصل الميتافيزيقي بين الغرب والشرق لم يأخذ باصطلاحه المكاني والجغرافي، بل في تأكيد التباين الثقافي والسياسي والأيدولوجي، لذلك فإن الاستشراق غالباً كان صادراً عن عقلٍ ميتافيزيقي متمركز على ذاته، همه الأساسي إنتاج الآخر على وفق صورٍ متخيلة؛ تعترتها التشوهات. وتُظهر الكثير من أدبيات الاستشراق الذات الغربية ذاتاً متفوقةً متمدنة، " بينما تزيّف ثقافة الآخر الشرقي (خصوصاً الإسلامي) وتحتقر ثقافته ولغته وديانته ووجوده، وتضعه خارج التاريخ. وقد لا ينطبق هذا التوصيف على توجهات قسم من المستشرقين، لكنها بالمجمل تعبر عن حركة الاستشراق خلال مراحل اقترانها بالمد الاستعماري. إذ جعل الاستشراق من الشرق ميداناً أنثروبولوجياً وإثنولوجياً مجرداً من قيمته التاريخية، وظهر الشرقي على وفق توصيفاته، العربي والتركي والفارسي، بصورة الشهواني، أو صورة البربري (1)

وهذا في الواقع إعادة إنتاج الصورة النمطية التي تشكلت إبان القرون الوسطى؛ ونسجتها في الأذهان مخيلة التمرکز اللاهوتي الذي دفع إلى حدوث أكبر مواجهة بين الإسلام والمسيحية خلال الحروب الصليبية.

لكن ومنذ منتصف القرن العشرين تطورت الدراسات الأنثروبولوجيا، وتغيرت معها النظرة إلى الآخر الشرقي، وشهد معها الاستشراق تغيراً وتحولاً من نشاط يقوم على الخضوع لتمرکز ذاتوي يميل نحو حمولات الماضي ونظراته الإقصائية " إلى عالم ينتقد التمحور حول المركز ويسعى نحو عالمية تفترض وجود طبيعة إنسانية مشتركة، تنادي بتساوي الطاقات الكامنة للثقافات من أجل تحقيق ما هو إنساني، ومع ذلك لم تقلت الأنثروبولوجيا الاستشرافية من عقلية النموذج الأوروبي، وخضع الإسلام إلى شرقنة أوروبية تم وضعه في قفص الاتهام، وتعرض لمختلف أنواع

(1) شحاته، المصدر السابق، ص 28.

الرفض " (1). ونظرةً بسيطةً في كتاب باتريشا كرونه **Corona** ومايكل كول **Cool** (الهاجريون) (2) تبين استمرارية التفسير الأنثروبولوجي والفيلولوجي المتعسف بحق الوقائع التاريخية التي هي بحكم الوثوق القطعية التامة.

وهذا يعني أنّ قضية التمركز حول الأنا وإقصاء الآخر أو طمسه نظل بين مدّ وجزر؛ إذ غالباً ما تنبثق هذه النعرة بين الفينة والأخرى؛ لتظهر على شكل كتب وبحوث أو آراء أو أعمال فنية حتى تصريحات سياسية تؤكد على ديمومة الثنائية التي يكون فيها الشرقي القطب الساكن والأدنى، وتتوزع بين الكتابات التاريخية والدراسات الأنثروبولوجية ثم بحوث الاستشراق وفلسفة التاريخ.

وتُظهر الكثير من أدبيات الاستشراق الذات الغربية ذاتاً متفوقة متمدنة، " بينما تزيّف ثقافة الآخر الشرقي (خصوصاً الإسلامي) وتحقّر ثقافته ولغته وديانته ووجوده، وتضعه خارج التاريخ. وقد لا ينطبق هذا التوصيف على توجهات قسم من المستشرقين، لكنها بالمجمل تعبر عن حركة الاستشراق خلال مراحل اقترانها بالمد الاستعماري، إذ جعل الاستشراق من الشرق ميداناً أنثروبولوجياً (علم الإنسان) وإنثولوجياً (الدراسات المعرفية) مجرداً من قيمته التاريخية، وظهر الشرقي على وفق توصيفاته، العربي والتركي والفارسي، بصورة الشهواني، أو صورة البربري (3)، وهذا في الواقع إعادة إنتاج الصورة النمطية التي تشكلت إبان القرون الوسطى؛ ونسجتها في الأذهان مخيلة التمركز اللاهوتي الذي دفع إلى حدوث أكبر مواجهة بين الإسلام والمسيحية خلال الحروب الصليبية.

وتتميز رؤية برنارد لويس **Bernard Lewis** بتغيرات رافقت تطور فكره ورؤاه للشرق عامة، حيث بدأ شيئاً فشيئاً يتحول من مؤرخ إلى باحث أنثروبولوجي بالغ

(1) حسن شحاته، المصدر السابق، ص 29-30.

(2) ينظر: باتريشه كرون، مايكل كوك، الهاجريون، ترجمة: نبيل فياض، لمركز الأكاديمي للأبحاث، (دمشق، 1990).

(3) المصدر نفسه، ص 30.

التعقيد والتناقض، وكتابات لويس في أشدها تحاملاً لا تخلو من طابع الإعجاب والانبهار بالعالم الإسلامي؛ حتى ليشعر المرء أنّ انبهاره هذا يأتيه على مضض. ولويس يقف من الآخر العثماني عند نقطة تتلخص بتمييز التركي العثماني عن التركي الطوراني أو العلماني؛ أي بمعنى التمييز بين ثقافة تسير في ركاب النسق الغربي وبين نمط له جذور عميقة في المغايرة عن الغرب الأوربي، ومحمل بثقافة خاصة ورؤى سياسية مختلفة شكّلت تعارضاً مع الحضارة الأوربية دام لقرون. ورؤية لويس تلخص رؤية أغلب المستشرقين التبعويين التي انصبت على محاولة تفكيك الشخصية الشرقية؛ ولكن بأساليب أو تحليلات سياسية ذات طابع تاريخي، فلآخر العثماني في كتاباته أطرّ واسعة لاقت انتشاراً في العصر الحديث؛ بوصفها كتابات ذات طابع أكاديمي له قبول؛ مما حمل ادوارد سعيد على الدخول في معارضات واسعة معه.

إنّ " آخر لويس مكون أنطولوجي (وجودي) يمثل مرآة عاكسة لـ الأنا من خلال سيرورتها، استطاع تشخيص وتعميق تفسير الصراع الغربي الإسلامي، الذي تُعدُّ الذات أولى ساحات معاركه؛ متجاوزة الفرد وغارقة في مفاهيم الذات الجمعية والحضارة والوطن والدين، ونظراً لتخصّصه في الدراسات العثمانية فقد ركز جلّ عنايته بالتاريخ الإسلامي على وفق حمولاته الثقافية، وهو وإنّ يتحدث كثيراً عن المسلمين لكنه غالباً ما يستمد رؤيته من خلال معرفته بالتركي العثماني، " لن تجد مع لويس صور المتحضر والبربري والنبيل والمتوحش؛ بل جملة من العلاقات والوسائل التاريخية التي مكّنت الأنا من أن تقرأ الآخر في صورة أوضح، وتتمثله في علاقات دنيوية تاريخية؛ ففوة الإمبراطورية العثمانية مكنتها من الوقوف أمام جدران فيينا مرتين ... وأوروبا لم تهمل الآخر الوجودي في تكوين أنها، وحولت

الآخر العثماني من عدو يربض على الحدود إلى مادة للتاريخ، سواء كان هذا التاريخ للذات، أو لبناء تاريخ الآخر وصورته لصالح الأنا، والتأريخ الإمبراطوري<sup>(1)</sup>. إن التركيز على كتابات لويس يعد برأينا تكثيفاً شديداً على نمطية التفكير في الآخر العثماني. ومواقف لويس بعامّة تجاوزت أطر التفكير الديني لتأخذ لها بعداً كولونيالياً؛ ولكن بأفقٍ حدائٍ يعتمد المنهجية الأكاديمية سبيلاً له. والسؤال هنا هل تناظر كتابات لويس كتابات هنتغتونغ في صراع الحضارات؛ بوصفه عملاً شمولياً يقع ضمن فلسفة التاريخ؛ أم هي مكمله له؟.

في الواقع أن الاثنان يركزان على مفهوم واحد وإن اختلفت توجهاتهما، وهذا المفهوم يتلخّص في التركيز على الغيرية أو الآخريّة. لكن ما يميز هانتغتونغ عن لويس أنه أكثر جذرية وشمول؛ صحيح أنه تحدّث عن الصراع الحضاري القائم أو المفترض بين الغرب والعالم الآسيوي عامة؛ إلا أنه يفضي في النهاية إلى التركيز على الآخر المسلم متخذاً عيناته التاريخية من الصدام الفعلي الذي كان بين أوروبا وبين العثمانيين. يقول هنتغتونغ: "إننا نواجه حالةً تتخطى مستوى القضايا التي تتابعها سياسة الحكومات، والأمر ليس أقل من صدام حضارات، وقد يبدو الأمر غير منطقي؛ ولكنه ردّ فعل تاريخي لتنافسٍ قديم ضد تراثنا اليهودي المسيحي وحاضرنا"<sup>(2)</sup>.

الكلام اعلاه يفضي إلى توافق عميق مع مقال لويس: جذور الغضب الإسلامي The Roots of Muslim Rage؛ وإن اختلفت سبل التعبير عنه لغويًا ومنهجيًا. بل أن لويس أول من استعمل مصطلح (صدام الحضارات) (A Clash of Civilizations)<sup>(3)</sup>، ولاشك فإن كتاباته الواسعة عن العثمانيين كانت القاعدة الفيلولوجية التي اعتمد عليها هانتغتونغ الذي هو "ليس بمُستشرق؛ لكن ثقافته مُستمدّة جذورها من كتابات

(1) بن سخري زبير، المسلم العثماني كآخر في كتابات لويس برنارد، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، (العدد ١٨)، السنة التاسعة، المركز الجامعي، (ميلة، الجزائر، ٢٠١٨)، ص 53.

(2) صامويل هانتغتونغ، صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي الجديد، ترجمة: طلعت الشايب، دار سطور، ط2، (بغداد، 1999)، ص 344.

(3) The Roots of Muslim Rage. The Roots of Muslim Rage. Lewis, Bernard. The Atlantic; Sep 1990; 266, 3; ABI/INFORM Global. pg. 57

المستشرقين، وإحساس لويس بالشرق نابعٌ من الصورة التي شكّلها الاستشراق؛ الذي انتقل من وصافٍ للشرق إلى صانعٍ له. والقارئ بإمكانه الاستعاضة عن قراءة كتاب هنتغتون - بخصوص العالم الإسلامي - بما نشره برنارد لويس في بحثه جذور الغضب الإسلامي، ومقاله أزمة الإسلام "The crisis of Islam" (1).

وأكثر ما يتمثل موضوع الآخر في كتابات لويس ما ذكره في كتابه الإسلام والغرب، فهذا الكتاب يظهر العثماني كآخر مفارق لأوروبا دون منازع، قد يقال: لم يكن اهتمام العثمانيين بأوروبا إلا بمثابة دار حرب يستوجب فتحها عسكرياً وإخضاعها ثقافياً وسياسياً، لكن أكثر ما نجده في أدبيات المسلمين عامة والعثمانيين خاصة بخصوص الغرب لا يحتمل التحقير ولا العزل التام كآخر دوني؛ فالأوروبيون عموماً والدول الاستعمارية من وجهة نظر الأدبيات العثمانية ليسوا بكفار؛ بل أناس غير ملتزمين عن العقيدة التي يدعونها. ونظرة العثمانيين للشرق بعامة تخلو من حمولات نظرة الغرب إليه؛ وكذلك الحال مع الشعوب الأخرى التي حكموها على الرغم من اختلافها العرق والعقائدي، فليس هناك تنميط حضاري ذا صبغة عرقية كالذي نجده في الكثير من أدبيات أوربا قديماً وحديثاً.

" إنَّ نقل فكرة الحضارة إلى الأوساط الفكرية العثمانية جرى بطريقة تأسيس توليفة لها آثار كبيرة على التصور العثماني لـ الشرق. فقبل ترسيخ فكرة الآخر وعلاقتها مع الغرب كان لدى العثمانيين فكرة عن الشرق (سارك) بالكاد تتجاوز المرجعية جغرافية. فلم يُنظروا إلى سكان الشرق على أنهم يشكلون كلية مقابل الغرب؛ بل تم تسميتهم وفحصهم بشكل فردي. لكن هذا الحال بدأ يتغير مع استيراد جدلية الشرق والغرب من الغرب نفسه، ومع هذا الاستيراد بدأ العثمانيون في قبول أن الشرق كيان مختلف عن الغرب وعليه فقد اتبعوا الخطاب الغربي إلى حد ما،.... بينما كان

(1) فارس عزيز المدرس، التطور التاريخي والوظيفي الاستشراق، دار الخليج للنشر والتوزيع، ط1، (عمان، 2021)، ص118.

التصورُ الغربي قائماً على انقسام صارم بين الشرق والغرب على أساس مفهوم الحضارة<sup>(1)</sup>.

قد يكون هذا هو الخط العام عن التصور الآخر الأوربي لدى العثمانيين؛ وقد تكفنه عدائية لا تخلو من ذرائع سياسية وأطماع؛ لكن بالتالي عند المقارنة بين الأوربي وبين العثماني نلاحظ أنّ النفي الشامل لدى الأوربي للأخر أوسع وأعمق بحيث لا يتوقف عند التصنيف العقائدي بل يتعداه إلى التصنيف الأخلاقي والانتروبولوجي، بل أنّ العثمانيين اتخذوا ولممددٍ طويلة بعضاً من الدول الأوربية حلفاء استراتيجيين؛ كالحال الذي بدأ على إوجّه في الحرب العالمية الأولى والتحالف مع الألمان، وكما يجري اختصاره للمسلمين عموماً بالأتراك (العثمانيين) فهو يعود ليبالغ في هذه القضية ويعمل على تنميط العالم الإسلامي برمته بوصفهم أتراكاً دون الالتفات إلى التنوع في الثقافة والمستوى العرقي وحتى العقائدي.

" ومن وجهة النظر الأيديولوجية لـ برنارد لويس يريد تقديم الإسلام والمسلمين باعتبارهم خطراً موحهاً ضد أوروبا عامة والغرب خاصة. ولما كانت الدولة العثمانية العدو الذي عرفته أوروبا منذ القرن الخامس عشر حتى انحسر تهديدها لوسط أوروبا في أواخر القرن السابع عشر، فقد ترسبت صورة في الفولكلور الأوروبي، واحتل صراع العثمانيين ضد أوروبا خلال هذين القرنين موقعا هاماً في كتب التاريخ الأوروبي. ومن هنا جاء اختزال برنارد لويس للإسلام في الدولة العثمانية، وللمسلمين في الأتراك، فهو يبني على أسس قائمة فعلاً في الثقافة الأوروبية، ومن الجدير بالذكر ان برنارد لويس عندما تناول في اطروحته عن الحشاشين فهم ليسو عرقاً بل عقيدة ضمت اعراقاً واجناساً مختلفة فمنهم الزنوج والقرامطة وليس بها قومية .. وفضلاً عن تهافت فكرة وجود نموذج نمطي للإسلام على ضوء الدراسات العلمية المستفيضة للمجتمعات الإسلامية وثقافتها، التي تكشف عن التنوع والتعدد، وتبين أن الثقافة الإسلامية تتضمن العديد من الثقافات الفرعية التي تختلف باختلاف الموروث الثقافي القديم السابق على الإسلام في تلك البلاد - فضلاً عن ذلك كله، يقع

(1) Travel, civilization and the east Ottoman travelers. Thesis submitted to middle east technical university. April 2010. P. 400.

لويس في خطة الإعدام، فهو يتعامل مع الدولة العثمانية وكأنها مجتمع واحد، ويسقط من اعتباره تعدد الشعوب والمجتمعات التي تكونت منها<sup>(1)</sup>.

والملاحظ على موقف لويس وهو موقف الكثير من المؤرخين: أن الهاجس العقائدي هو المعيار الأوحّد في تصنيف الشعوب؛ حتى بمعزل عن العرق والجغرافية والمحدّدات الثقافية الأخرى؛ فالآخر العقائدي هو الغالب في التصور الغربي، على الرغم مما كانت تفرضه المؤثرات السياسية من مواقف تنقض سلوك الأمم الغربية ذاتها في موقفها تجاه العثمانيين؛ كأن تبرم الاتفاقات الحربية والسياسية مع الدولة العثمانية ضد دول أوروبية أخرى، وكان العثمانيين حينها جزء وشريكا في التكوين الأوربي. لذلك تلحق هذه الممايزة على الدوام بمسميات فارقة مميّزة لآخر العثماني؛ حتى وهو في حلف من الأوربي ضد أوربي آخر.

فقد "أبدى الأوربيون في أجزاء متعددة من القارة تردداً غريباً في تسمية المسلمين بنعوت وأسماء عرقية، وهاذفين من خلال هذا إلى إضعاف اعتبارهم وأهميتهم، وتقليص دورهم، وقد اعتاد الأوربيون في أوقات وأماكن مختلفة تسمية المسلمين بالـ (Saracens)، أو المغارية (Moots)، أو الأتراك (Turks) أو (Tatars). لكن الترك إلى حد كبير هو اسم أكثر دول المسلمين قوة وأهمية، فقد أصبح مرادفاً حتى لكلمة "مسلم"، وكان يقال عن معتنق الإسلام إنه (أصبح تركيا)، ومما يدل على ارتباط اسم المسلم بالتركي انتشار التسمية في أمريكا اللاتينية حتى ليشير الأديب غابرييل غارسيا Garsiya ماركيز في رواية قصة موت معن إلى نعت الأهالي للعرب المهاجرين لأمريكا اللاتينية بالأتراك"<sup>(2)</sup>.

ويمضي برنارد لويس في تشخيص غفلة الإمبراطورية العثمانية عن رؤية العالم الجديدة في ربط الحياة السياسية بالاقتصاد، حتى ويقر "بأن المستفيدين من التغيير الاقتصادي هم الغرباء والأقليات الدينية حيث مثلوا الوسطاء مع الاقتصاد العثماني؛

(1) ينظر: برنارد لويس. مقدمة كتاب: أين الخطأ، ترجمة: محمد عناني، دار سطور، ط1،

(القاهرة، 2003)، ص 14.

(2) بن سخري زبير، المصدر السابق، ص 58.

فيما كانوا يعدون هامشا في الحياة اليومية لأنهم يهود ومسيحيون ويونانيون وأرمن، ففي عام ١٩٢١ سُجل أربعون مصرفيا من القطاع الخاص في استانبول ولم يكن أي منهم تركيا مسلما<sup>(1)</sup>.

إن إقرار لويس هنا بامتياز الأقليات يدحض تشويه صورة العثمانيين على أنهم مصادر لحدود رعاياهم من الديانات الأخرى، فطبقا لإقرار لويس كانت تلك الأقليات تتمتع بميزات لا تتمتع بها الأغلبية من رعايا الدولة العثمانية المسلمين، وإلا فالجانب الاقتصادي والسياسي يعد هرم هوية الدولة وتماسكها؛ ومع ذلك كان مباحاً أمام المتميزين تلك هؤلاء الأقليات.

وهذا الذي يذكره لويس لا تجد له نموذجاً مشابهاً في أوروبا أي أن حضور الآخر الشرقي في السياسة والاقتصاد الغربي معدوم تماما بينما ما يقر به لويس من حضور أقليات غير مسلمة وشخصيات أوربية نافذة في الدولة العثمانية يعطي إشارة جلية إلى القبول النسبي للآخر في ذهن العثماني على الرغم من كل الأدبيات التي قد تخاف هذه الرؤية، " فليس هناك مكان للمسلمين في أراضي العالم المسيحي التي فقدت سابقا والتي استردت ثانية الآن، وحتى جمهورية البندقية التي عاشت من تجارة المشرق كانت تواجه أكبر صعوبة في تحمل وجود أي خان ولو كان صغيرا ينزل فيه التجار الأتراك الزائرون. لقد أضحى وضع الأتراك في المجتمع الغربي كالعاهرات والجدام والمجانين، حتى لا يلقى بمدينة البندقية رائدة التجارة في الشرق أن يكون بها خان متواضع لهم. ولم يعد العثماني يستحق أن يكون آخر أوروبا في ظل العالم الجديد الذي امتد شرقا وامتد غربا.... وإذا كان العثمانيون قد استعانوا بالبارود والمدافع والسيوف في مقارعة أسوار فيينا، فقد أوجدت الجامعات الأوروبية حفل الاستشراق الذي يفت ويفكك الظواهر الإنسانية ويقدم نتائجه المعرفية لمن هو أولى بها، ألا وهي السياسة، لقد نشأت في أوروبا مفاهيم جديدة وسلطات جديدة، إنها سلطة المعرفة"<sup>(2)</sup>.

(1) المصدر نفسه، ص 61-62.

(2) بن سخري زبير، المصدر السابق، ص 61-62.



وهنا يدافع لويس عن الخطاب الاستشراقي ويبرر ارتباطه الأداة بالاستعمار ويحث عن ذرائع أخلاقية ومسوغات منطقية تتلفع بالمعرفة وكان المعرفة بريئة تمام البراءة في كل أحوالها. والواقع فهذه التلميحات هي على الأغلب ردا على اتهامات ادوارد سعيد للويس والمبثوثة في كتب الآخر والتي يعدها سعيد أداة فيلولوجية لتصنيع شرق مغاير لحقيقته فعند لويس " الخطاب الاستشراقي ليس مجرد موضوع سياسي، ينعكس بصورة سلبية في الثقافة، كما أنه ليس مجموعة نصوص يجمعها عن الشرق كموضوع، بل هو توزيعة، وإعادة توزيع الوعي الجيوسياسي، فالإرث المعرفي الاستشراقي وهو يحبو ثم يقف على رجلين كفرع معرفي متميز بخلفية خطابية، تستثمره الإدارة السياسية ضد من يناقضها، حتى أضحي قناة تمرير معارف غير علمية بعنوان موضوعية<sup>(1)</sup>.

وحاول لويس تفسير تراجع العثمانيين عن مجارة الغرب إلى أسباب كثيرة حاول من خلالها إعطاء صورة تكاد تكون ثابتة عن ذاتية العجز في الدولة العثمانية؛ دون التطرق كثيرا لأسباب تدخل الآخر. فهو يعزو انهيارها إلى مكونات الحضاري " فلم تعد تحقق شرط التاريخ والإنسان، بل ركزت على ما هو مادي عسكري كالأسلحة وبناء السفن وممارسة الطب، وهذه الوسائل جُردت من ثقلها الثقافي الذي كان ينبغي أن يصاحبها فتحوّلت الدولة العثمانية إلى نمط حضاري مئوت، وأفضت الأزمات الناتجة عن التحولات الطارئة السعي إلى البحث عن الأسباب الحقيقية، لكن الحلول كانت ترفيعة عتيقة، وبدأ العثمانيون المسلمون رجال الدولة، والجنود والباحثون بمواجهة الحقيقة المرة لضعفهم، مقارنة مجتمعهم مجتمع أوروبا، آملين أن الأخير يمكن أن يقدم لهم بعض الحلول<sup>(2)</sup>.

(1) المصدر نفسه، ص 64-66.

(2) أنظر: لويس برنارد، الإسلام والغرب، ترجمة: فؤاد عبد المطلب، اتحاد الكتاب العرب، ط،

(د.م، 2007)، ص 38.

قد يكون لويس في هذا الجانب يعبر عن منحى سلبي؛ هو بلا شك محقّ فيه؛ إذ ثمة مؤثرات نفسية والتقاليد راکدة ومنغلقة حجت العثمانيين عن مواكبة التطور الذي كانت تقتضيه دولتهم.

إنّ لويس هنا محق في الكثير مما ذهب إليه في تفسير سبب انهيار الدولة العثمانية؛ لكن يغفل بشكل كبير اثر التدمير المستمر للدولة العثمانية من لدن العالم الغربي بعمومه، وبسبب ما انصب على هذه الدولة من دعاية وأدبيات البت عليها الأقليات وكل الحركات المناهضة لها. استنتاجات:

حاول البحث من خلال منهج التحليل التاريخي والمنهج الجدلي الكشف عن حمولات فكرة الآخر؛ والمقصود بها الحمولات النفسية والاجتماعية التي تتبلور كرواسب وتراكمات دينية وعقائدية وحوادث تاريخية تعترى ثقافات معينة وتؤثر فيها، ويمكن استحضارها حين يرى صاحبها نماذج حوادث مشابهة لها؛ وهو ما يطلق عليه ثنائية الغرب / الشرق. وأنّ هذه الثنائية في الحقيقة لها دوافع معلنة وأخرى خفية؛ أو غير طافية على السطح. لكنها تنعكس على علاقة الشعوب بعضها ببعض.

إنّ الآخر العثماني في الذهن الأوربي لم يكن راکدا بل تعرض لتبدلات وتغيرات كثيرة مع أن علاقة الدولة العثمانية ومع الدول الأوربية - في فترات معينة - دخلت في علاقات ودية وتحالفات؛ إلا أن الغالب على تلك العلاقات أنها كانت سالبة؛ بفعل الحروب والمواقف السياسية؛ فضلا عن الدعاية المضادة وإقصاء الآخر أو تصنيفه على أنه عدوا مستداماً.

إنّ البعد التطوري في تشكيل ثنائية الآخر مهم في تحليل هذه الظاهر والإسهام في الحد منها، لأنها نتيجة تراكمات وتطورات تاريخية وذهنية ونفسية متعددة المشارب، ومن العسير ردها إلا بكشفها وتبيان حقيقتها.

وتبيّن من خلال البحث أنّ حالة التراكم والتكرار هي التي تشكل التصور تجاه الآخر، وهذا التراكم يتكون من سلسلة حوادث وحمولات مختلفة؛ من مثل الحمولات السياسية والحمولات العقائدية والنفسية، ثم حمولات نقص المعرفة بالآخر. ونقص

المعرفة يعني التغييب والجهل. بينما صاحبها لا يعي بخطورتها. لذلك تسهم مثل هذه الدراسات في تثقيف المجتمعات بخطورة المواقف السلبية تجاه الآخر، مما يؤثر على حالة السلم العالمي.

واستنتج البحث أيضا أنّ فكرة الآخر السلبي في الغالب يأتي نتيجة أفعال السياسة والمعتقدات المتطرفة ويلبس ثوبا وطنيا أو عقائدياً؛ بينما تدفع الشعوب ثمن تلك الشقة والخلافات والإقصاءات. لذلك تبقى هذه الحالة بحاجة إلى تحليل ومعرفة بأسبابها وحيثياتها وطريقة اشتغالها في ذهنية المجتمعات.

الخاتمة:

لقد اتضح من خلال البحث حقيقة هامة وهي ان العرب المسلمين هم اساتذة العالم وهم السابقون في اساليب التعامل واقامة السفارات مع الدول الاخرى ولنا نحن كباحثين ان نفخر بهم وبما تركوه لنا من انجازات تجعل الامة الاسلامية في مقدمة الدول في اصول التعامل والسفارات والعلاقات الدبلوماسية فقد اسهمت السفارات في ازدهار وتطور العلاقات الثقافية ونشاط حركة الترجمة والعلاقات التجارية وحل الكثير من المشكلات وبخاصة تبادل الاسرى فقد كان للسفارات مهام مختلفة عسكرية وسياسية واقتصادية وثقافية ودينية ظهرت واضحة وجلية من خلال الكثير من النماذج التي اعطيت عن السفارات في العصر العباسي فقد طرقت ابواب بينت فضل العرب المسلمين وسبقهم في طرق التعامل والاتصال الدبلوماسية ، وارجو ان اكون قد وصلت بهذا العمل الى درجة الكمال مع اليقين التام بأن الكمال غاية لا تدرك وإن العصمة من الزلل شيء لا يصار اليه الا من عصم الله من الانبياء والرسل.

## References

1. Abdel Moneim Al-Hanafi, **The Comprehensive Dictionary of Philosophy Terms**, Madbouly Bookshop, 1st edition, (2000), p. 29.
2. Adnan Silajic, **Christian Europe's Concept of Islam**, translated by: Jamal Al-Din Syed, The National Center for Translation, (Cairo, 2016), p. 46
3. An Anthology of His Work. Charles E. Reagan,: Beacon Press, 1978, pp. 101- 106.

4. Aristotle, **Politics**, translated by: Lotfi El-Sayed, The Egyptian Book Organization, (Cairo, Dr.T), pp. 95-101.
5. Bernard Lewis. **Introduction to the book: Where is the mistake?** Translated by: Muhammad Anani, Dar Sotoor, 1st edition (Cairo, 2003), p. 14.
6. Bin Sukhri Zubair, **the Ottoman Muslim as 'the other' in the writings of Louis Bernard**, Al-Nour Journal for Civilization and Intellectual Studies, (Issue 18), Year 9, University Center, (Mila, Algeria, 2018), p. 53.
7. Claude Kahn, **East and West**, translated by: Ahmed Al-Sheikh, Dar Sina Publishing, 1st edition, (Cairo, 1990), p. 83.
8. Dixon, Nicholas. **From Georgian to Victorian**". History Review. 34–36. 2010 . Archived from the original on 27 January 2013.London.
9. E.A. Freeman, **The History and Conquests of the Saracens** (Oxford: John Henry and James Parker, 1856), p. v; further page references appear in parentheses.
10. **Eastern History with Western Eyes'**: E.A. Freeman, Islam and Orientalism. VickyMorrisroe. Pp. 1-4. Journal of Victorian Culture.
11. Elizabeth Siberry, **Pictures of the Crusades in the Nineteenth and Twentieth Centuries**, translation and commentary: Qassem Abdo Qassem, edited by Jonathan Riley Smith, research published in the Oxford History of the Crusades, Part 2 (Cairo, 2009), pp. 345-346.
12. **Encyclopedia of World Biography**: 20th century supplement, vol. 13, J. Heraty, 1987: "Paul Ricoeur. Geoffrey Bennington, Jacques Derrida, University of Chicago Press, p. 330.
13. Faris Aziz Al-Mudarris, **The Historical and Functional Development of Orientalism**, Dar Al-Khaleej for Publishing and Distribution, 1st edition, (Amman, 2021), p. 118.
14. **Fragrant Gardens and Converging Waters: Ottoman Governance in Seventeenth Century Damascus**. By Malissa Anne Taylor Doctor of Philosophy in History. University of California. . 2003. P.6.

15. Freeman Papers, ref. EAF/2/2/14, John Rylands University Library. By: E.A. Freeman, **Islam and Orientalism**. Vicky Morrisroe. P.4.
16. Hassan Shehata, **The Self and the Other in East and West**, Pictures and Problems, Dar Al-Alam Al-Arabi, 1st edition, (Cairo, 2008), p. 102.
17. Iber Ahim Mustafa and others, **Al-Mu'jam Al-Waseet**, Islamic Library for Printing and Publishing Turkey, (D.N), (D.T), p.9.
18. **Imagining the Middle East**, Thierry Hentsch, Black Rose Books Ltd., 1992
19. Jeremy Salt, **Fragmentation of the Middle East**, by Nabil Sobhi, Dar Al-Nafais, 1st Edition, (Syria, 2008), pp. 45-46.
20. John Gharebin, **History of Science**, translated by: Shawqi Jalal, The World of Knowledge, 1st edition. (Kuwait 2012), p. 24.
21. Louis Bernard, **Islam and the West**, translated by: Fouad Abd al-Muttalib, Arab Writers Union, vol. (d.m., 2007), p. 38.
22. Luckman, **The History and Policies of Orientalism**, translated by: Sherif Younes, Dar Al-Shorouk, 1st edition, (D.M., 2007), pp. 50-56.
23. Martin Bernal, **The Black Ethna**, translated by: Ahmed Etman, The Supreme Council of Culture, The National Project for Translation, Part 1, (Dr. M, 2001), p. 102.
24. **Muslim - Christian Encounters**, W . M . Watt London and New York, 1991., p. 83 - 88.
25. **New Fontana Dictionary of Modern Thought**, The Other, The, Oxford. Third Edition, (1999) p. 620.
26. Parry, jonathan. **Politics of Patriotism**, pp. 323-86, and W.E. Gladstone, **Bulgarian Horrors and Russia in Turkistan**, with Other Tracts (London: John Murray, 1876).
27. Patricia Crone, **Michael Cook, The Hagarians**, translated by: Nabil Fayyad, for the Academic Research Center, (Damascus, 1990).
28. **Power And Religion in Baroque Rome**, Barberini Cultural Policies, Peter Rietbergen. BRILL LEIDEN • BOSTON 2006. p.321
29. Qasim Abdo, **What are the Crusades**, The World of Knowledge, 1st edition, (Kuwait, 1998), pp. 77-87.

30. Rana Kabbani: **Terror of the World' to the 'Sick Man of Europe'**: European Images of Ottoman Empire and Society from the Sixteenth Century to the Nineteenth (Oxford: Peter Lang, 2002)..
31. Ruth A. Tucker. **From Jerusalem to Irian Jaya**. P. 235. Copyright © 1983,: Zondervan, Grand Rapids, Michigan 2004
32. Samuel Huntington, **The Clash of Civilizations**, Remaking the New World Order, translated by: Talaat Al-Shayeb, Dar Sotoor, 2nd edition, (Baghdad, 1999), p. 344.
33. Stephens, **Life and Letters**, published in 1877. The Turks in Europe', was written as the first in a series entitled Politics for People, published in II,P, 110.
34. **The Encyclopedia of Philosophy**. Edward Craig. London. (1967) Vol. 1, p. 76
35. The Life and Letters of Edward A. Freeman, Stephens, W R W (1895a). D.C.L., LL. D. Vol. I. London; p1-6. New York: Macmillan and Co.
36. **The Ottoman Empire, 1700–1922** Second Edition. DONALD QUATAERT, University of New York. 85-86
37. **The Roots of Muslim Rage**. The Roots of Muslim Rage. Lewis, Bernard. The Atlantic; Sep 1990; 266, 3; ABI/INFORM Global. pg. 57
38. **The Study of Arabic**. T. W. Arnold. Bulletin of the School of Oriental Studies, University of London, Vol. 1, No. 1. (1917), pp. 112-121.
39. **Travel, civilization and the east Ottoman travelers**. Thesis submitted to middle east technical university. April 2010. P. 400.
40. **Western Images of Islam 1700–1900**, 412 Albert Hourani, Australian Journal of Politics and History(2003), and Islam and the West, Bernard Lewis, (Oxford: Oxford University Press, 1993).
41. **Western Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe**, David R. Blanks and Michael Frassetto. p.210.

## *The Development Of The Ottoman Image of (The Other) in The Works Of European Orientalists and Historians*

Muhammad Ali Muhammad Afeen\*

### **Abstract**

The research deals with an issue of great importance; Especially in the context of the political and social changes that the world is going through. And this idea is the idea of the other, which has attracted the attention of thinkers, philosophers and historians

In this study, we deal with the issue of the Ottoman (other) in the literature of European thought. The issue of the Ottoman (other) has emerged on the basis of which many political and cultural attitudes towards the East in general.

The research deals with the development of the idea of the other in European culture, first in chronological manner, and then with an analytical approach. Through a selection of different samples that include historical and oriental writings.

The research aims, through this proposition, to reveal the payloads of this second, West / East. And its effects on the relationship between East and West in general.

Then the research aims to contribute to correcting perceptions about the other. In order to reach a state of stability, acceptance and human coexistence among peoples.

**Keywords:** the image of the other, the Ottoman, the European orientalist.

---

\* Asst .Prof/ Department of History/ College of Arts/ University of Mosul.